رجاء النقاش

قضية قديمة في ضوء جديد

العقاد الشاعر

أصدر العقاد أول ديوان له سنة ١٩١٦ ، وكان هذا الديوان هو « يقظة الصباح » ، وواصل بعد ذلك اصدار دواوينه المختلفة حتى قبل وفاته بسنوات قليلة ، وقد بلغ انتاجه الشعري عشرة دواوين هي ـ بعد ديوانه الاول : وهج الظهيرة ـ أشباح الاصيل ـ اشجان الليل ـ وحي الاربعين ـ هدية الكروان ـ أعاصير مغرب ـ عابر سبيل ـ بعد الاعاصير ـ بعد البعد . وقد أصدر العقاد سنة ١٩٥٨ مجموعة مختارة من شعره سماها « ديوان من دواوين » وكلها قصائد منشورة في مختلف دواوينه السابقة على هذه المختارات .

وقد ظهر العقاد على مسرح الحياة الادبية بنظرياته النقدية حول الشعر بالذات ، وبدعوته الى مدرسة شعرية جديدة مع زميلين له هما : عبد الرحمن شكري وابراهيم المازني ، وكان الثلاثة شعراء يكتبون قصائدهم من خلال فهمهم المشترك للمدرسة الجديدة في الشعر . ولكن عبد الرحمن شكري توقف عن الكتابة فجاة ، فلم ينطق بالشعر ولا بالنثر حتى توفي سنة ١٩٥٨ . وبقي معتزلا للناس والحياة صامتا لا يكتب ولا يشترك في أي نوع من النشاط العام او الخاص ما يقرب من عشرين سنة متصلة . أما المازني فقد توقف عن الشعر هو الآخر و « تاب » عنه بعد بدايته الاولى ، وظل اكثر من عشرين سنة لا يكتب الشعر ولا يعترف لنفسه ولا للناس بانه شاعر ، أما ثالث الثلاثة وهو العقاد فقد ظل مثابرا على كتابة الشعر حتى النهاية ، وهذا الموقف هو احدى النتائج الطبيعية لشخصية العقاد وموقفه من الحياة . فقد كان العقاد عنيدا صاحب ارادة قوية ، وكان قادرا على المثابرة والنظام الدقيق ، وكانت لديه دائما ثقة بنفسه وبالحياة وبامكانياته ومواهبه ، وهي ثقة لم تتوفر لزميليه : شكري والمازني ، حيث كان كل منهما يحمل نفسا مليئة بالقلق والشك والحزن وعدم الثقة بالحياة ، وقد عبر شكري عن ذلك بالانسحاب التام من المجتمع بينما عبر المازني عن موقفه بالسخرية اللاذعة التي ملات كتاباته حتى نهاية حياته .

وقد أثار العقاد في الادب العربي المعاصر عاصفة عنيفة حول شعره كما أثار عواصف عديدة في مختلف ميادين الفكر والادب والسياسة ، ومنذ البداية كان هناك اختلاف واضح حول شعر العقاد ، ويمكننا ان نقسم موقف النقاد والباحثين من شعر العقاد الى عدة اتجاهات . الاتجاه الاول هو الاتجاه الذي يرى في شعر العقاد نموذجا للشعر الحقيقي والاصيل ، ويرى فيه مدرسة جديدة للشعر في الادب العربي كله ، وهؤلاء الذين يرون هذا الرأي هم ـ في معظمهم ـ تلاميذ العقاد واصدقاؤه ، ونختار من بينهم نموذجا واحدا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر هو الدكتور زكي نجيب محمود في مقال له عن « العقاد الشاعر » ، ورغم ان الدكتور زكي نجيب محمود ليس معروفا اساسا بانه ناقد من نقاد الشعر بقدر ما هو معروف بكتاباته الفكرية والفلسفية الا ان اهميته هنا هو انه يعبر بوضوح تام عن موقف النقاد الذين يؤمنون بشاعرية العقاد ويعتبرونها نموذجا للشعر الصحيح ... يقول الدكتور زكي نجيب محمود : « شعر العقاد أقرب شيء الى فن العمارة والنحت ، فالقصيدة الكبرى من قصائده أقرب الى هرم الجيزة او معبد الكرنك او مسجد السلطان حسين منها الى الزهرة والعصفور وجدول الماء ـ القصيدة الكبرى من قصائده أقرب الى تمثال رمسيس منها الى الاناء الخزفي الرقيق او الى غلالة شفافة من الحرير . ولو عرفت ان مصر قد تميزت في عالم الفن طوال عصور التاريخ بالنحت والعمارة ـ عرفت ان في شعر العقاد الصلب المتين جانبا يتصل اتصالا مباشرا بجذور الفن الاصيل في هذا البلد » .

هذا التفسير الخاص لشاعرية العقاد هو رأي الدكتور زكي نجيب محمود وحده . ولكن ما في هذا الرأي من اعجاب بشاعرية العقاد وحماس لها يعتبر عنصرا مشتركا بين معظم أصدقاء العقاد وتلاميذه .

ويمكن ان نضيف الى هذا الاتجاه في الايمان بشاعرية العقاد والحماس له بعض ما قاله كتاب كبار من جيل العقاد نفسه مثل الدكتور طه حسين الذي وقف في مسرح الازبكية بالقاهرة مساء الجمعة ٢٧ ابريل ١٩٣٤ ، ليقول ، وكانت المناسبة هي حفلة تكريم للعقاد :

« كنا أيها السادة نشفق على الشعر العربي وكنا نخاف عليه ان يرتحل سلطانه عن مصر ، وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقي وحافظ ، كنا نتحدث عن علم الشعر العربي المصري اين يكون ومن يرفعه للشعراء يستظلون به ، كنا نسأل هذا السؤال ، وكنت انا أسأل هذا السؤال : لماذا ؟ لاني كنت أرى شعر العقاد على علو مكانته وجلال خطره شعرا خاصا مقصورا على المثقفين والمترفين في الادب ، وكنت أسأل هل آن للشعر القديم المحافظ المسرف في المحافظة ان يستقر وان يحتفظ بمجده ، وهل آن للشعر الجديد الذي يصور مجد العرب وامل المصريين ان ينشط ويقوى ، انتظرت فلم أجد للمقلدين حركة او نشاطا ، فاذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقي ، واذا المدرسة الجديدة قد اخذت تؤدي حقها ، وتنهض بواجبها ،

فترضي المصريين والعرب جميعا ، واذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضا ، واذا الشعور المصري والقلب المصري والعواطف المصرية لا ترضى ان تصور كما كان يصورها حافظ وشوقي ، وانما تريد وتأبى الا أن تصور تصويرا جديدا ، هذا التصوير الذي حمل الملايين على اكبار العقاد كما قال أحد الخطباء ، اذن لا بأس على الشعر والادب العربي ، وعلى مكانة مصر في الشعر والادب .

ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للادباء والشعراء : اسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » .

هذا هو ما قاله طه حسين سنة ١٩٣٤ .. لقد خلع على العقاد امارة الشعر العربي المعاصر بعد أحمد شوقي ، ورأي طه حسين في هذا المجال يؤيد ويناصر رأي أصدقاء العقاد وتلاميذه بل يفوقهم جميعا في الحماس لشعر العقاد .

والعيب الذي يمكن أن نحسه بسهولة في آراء انصار العقاد وتلاميذه هو انهم متحمسون لكل شيء يكتبه العقاد ولكل شيء يقوله ، فقد كان العقاد شخصية قوية مسيطرة ، وكانت هذه الشخصية القوية المسيطرة تفرض على كل الذين يلتفون حولها نوعا من الاعجاب أشبه بالاعجاب الصوفي الذي يفقد فيه الوعي سيطرته على الانسان ، ويفقد فيه التفكير المنطقي قدرته على التحكم في الآراء وتنقيتها من العناصر العاطفية المفروضة عليها . فليس بين تلاميذ العقاد وأصدقائه من يرفض شيئا كتبه العقاد أو ينقده ، بل ان « كل » ما كتبه العقاد يحظى باعجاب هؤلاء الاصدقاء والتلاميذ . وفي انتاج غزير متنوع استمر حوالي ستين عاما متصلة مثل انتاج العقاد لا يمكن ان يوافق العقل على ان كل هذا الانتاج كان ممتازا وناضجا منذ البداية حتى النهاية ... انه رأي عاطفي هو اثر من آثار الاعجاب والانبهار بشخصية العقاد العملاقة .

أما رأي طه حسين في تنصيب العقاد أميرا للشعر فهو رأي يخرج على نطاق الحكم النقدي والادبي لو تأملناه قليلا .. فقد أعلن طه حسين هذا الراي في حفلة تكريم للعقاد ولم يعلنه في جامعة أو في مجال من مجالات البحث والدراسة والعلم ، ومن ناحية أخرى فان تاريخ هذا الخطاب الذي القاه طه حسين هو سنة ١٩٣٤ ... وفي هذا التاريخ كان طه حسين قد بدأ يميل الى حزب الوفد وبدأ يعقد صلات جديدة مع هذا الحزب الذي كان قبل ذلك من أشد أعدائه ومعارضيه ، ولقد كان العقاد في ذلك الوقت هو كاتب الوفد الاول ، وكانت حفلة التكريم التي أقيمت له في ذلك العام ـ ١٩٣٤ ـ تحت اشراف رئيس الوفد . ومن ناحية اخرى كان العقاد قد وقف مواقف متعددة في تأييد طه حسين والدفاع عنه عندما أثيرت ضده عاصفة من المعارضة والاستنكار في مجلس النواب سنة ١٩٢٦ ، وبعد سنة ١٩٢٦ ، ووقف العقاد الذي كان عضوا في البرلمان ليدافع عن طه حسين وحريته في البحث العلمي ، وقد ذكر طه حسين مرارا انه لا ينسى للعقاد هذا الموقف منه .

فموقف طه حسين كما هو واضح من خلع امارة الشعر على العقاد هو موقف سياسي وليس موقفا أدبيا ، ومما يؤكد هذا المعنى ايضا ان فكرة امارة الشعر هذه هي فكرة سخيفة ، ولم يكن العقل الادبي في جيل طه حسين والعقاد يقبلها بسهولة ، فهذا الجيل هو الذي دعا الى الصدق في التعبير وتنوع الاتجاهات الشعرية ولم يكن يقبل تجميد المواهب الشعرية او سد الطريق أمامها باختيار أمير للشعراء يرتفع عليهم جميعا ويسمو فوقهم ولا تستطيع موهبة اخرى ان تقترب منه ، ولو صح ان الدكتور طه حسين كان يعني ما يقول عندما خلع امارة الشعر على العقاد فهل كان كل ما يستحقه امير الشعر منه هو هذا الخطاب السريع الذي القاه في حفلة تكريم عامة ؟! ان طه حسين لم يعد الى شعر العقاد بعد ذلك أبدا ولم يشر اليه بالنقد او بالاعتراض او بالتاييد ، مما يؤكد ان موقفه من مبايعة العقاد كان موقفا متسرعا .

هذا هو الاتجاه الاول ـ بين الدارسين والباحثين ـ حول شعر العقاد ... وهو اتجاه الاعجاب المطلق بشعر العقاد واتخاذه نموذجا للشعر في مفهومه الصحيح .

يقابل هذا الاتجاه بالنسبة لشعر العقاد اتجاه آخر يرفض الاعتراف بشاعرية العقاد ، ويرى انه بعيد تماما عن الموهبة الشعرية الحقيقة . وعلى رأس هؤلاء الذين يقولون بهذا الرأي احد كبار الادباء في جيل العقاد وهو مصطفى صادق الرافعي ، الذي شن حملة عنيفة وقاسية على شعر العقاد في كتابه المشهور « على السفود » ، ومن المؤكد ان كتاب « السفود » يعتبر جزءا من معركة ادبية كبيرة بين الرافعي والعقاد ، وهي معركة تمتد بجذورها الى بعض الاسباب السياسية والشخصية العديدة ، ولذلك فان كتاب « على السفود » رغم ما فيه من ملاحظات جزئية ذكية الا انه في النهاية يعتبر هجوما وتحاملا ، وليس نقدا فنيا يلتزم بالمقاييس الموضوعية للنقد السليم .

اما النموذج الثاني في هذا الاتجاه ... اتجاه عدم الاعتراف بشاعرية العقاد ، فيقدمه لنا ناقد لبناني كبير هو « مارون عبود » في كتابه المشهور « على المحك » ، ففي هذا الكتاب دراسة واسعة لشعر العقاد يخرج منها الناقد اللبناني برأي يقول بانعدام الشاعرية عند العقاد وبانعدام قدرته في مجال هذا الفن بالذات .

وهذا نموذج من آراء « مارون عبود » في العقاد حيث يقول باسلوبه النقدي الساخر عن دواوين العقاد الثلاثة « وحي الاربعين ـ هدية الكروان ـ عابر سبيل » :

« طالعت دواوينه الثلاثة التي انفق على تحبيرها برميل حبر وقنطارا من الورق وغابة من الاقلام ، تحسبه سمسارا يصدر شعرا في دواوين ، وبضاعته اشكال وألوان ، فكانه دكان ضيعة فيه جميع حوائج البيت ... وليس الذنب ذنب الاستاذ ، فهو عارف باصول الفن ، ولكن الكلام يتعصى عليه ، وفنه كفناة عمرو بن كلثوم لا يلين ويشج قفا المثقف والجبين ، نفسه تطلب ومعدته لا تقطع فيقعد ملوما محسورا ... خذ هذا العنوان الرائع « عيد ميلاد في الجحيم » ، فماذا ترى في تلك القصيدة وهي من خير وحي اربعينه ؟ بيانا دون الوسط ، وشعرا أجش تغلب عليه صنعة النثر وصبغته ، وعلى ضوء قوله « انما الشاعر من يشعر ويشعر » رحت أفتش في جحيمه ولا برجيل يهديني ، فما وجدت خيالا يرضيني ولا شعورا يسليني ، فعدت بخيبة أردد : مالي لا أرى الهدهد ...

القصيدة غراء فرعاء مصقول ترائبها ، ولكنها مقعدة ، تخلو من الاهتزازات والنبرات والصدى البعيد . أنكون في جهنم ونبرد ؟ انحصر عيدا ونحزن ؟ ثم نقول : ان الشاعر من يشعر ويشعر » .

وتبلغ السخرية في نقد مارون عبود حدا عنيفا عندما يعلق على ابيات للعقاد فيقول :

« ... ماذا نقول ؟ أما في مصر عاقل ينصح هذا الرجل ؟ المروة يا ناس ! انقذوا أخاكم وكفوا عنا شعوركم » .

اما الابيات التي علق عليها مارون عبود هذا التعليق الاخير فهي مقطع من قصيدة « سلع الدكاكين في يوم البطالة » . وفي هذا المقطع يقول العقاد :

مقفرات مغلقات محكمات
كل أبواب الدكاكين على كل الجهات
تركوها ، أهملوها
يوم عيد عيدوه ومضوا في الخلوات
(البدار) (ما لنا اليوم قرار)

أي صوت ذاك يدعو النا س من خلف الجدار
أدركوها أطلقوها
ذاك صوت السلع المحبو س في الظلمة نار

ومارون عبود ليس بينه وبين العقاد أي خصومه شخصية ، ولا شك ان رأيه في شعر العقاد هو رأي أدبي خالص ، اما ما جاء في نقده من سخرية قاسية فتلك صفة خاصة في كل كتابات مارون عبود عن العقاد او عن غيره ، كما ان النماذج التي نقلتها من نقد مارون عبود للعقاد هي مجرد نماذج عامة تكشف عن رفضه لشعر العقاد ، أما دراسات مارون عبود عن هذا الشعر فهي مليئة بالمناقشة التفصيلية للدواوين والقصائد والابيات ، وهذه الدراسة منشورة كما أشرت في كتاب « على المحك » .

يقي الاتجاه الثالث في نقد شعر العقاد ، وهو الاتجاه الذي يناقش هذا الشعر مناقشه معتدلة هادئة ترفض بعضه وتقبل بعضه الآخر ، وخير من يمثل هذا الاتجاه هو الدكتور محمد مندور . وقد بدأ الدكتور مندور حياته النقدية برفض شعر العقاد واستنكاره فقال في كتابه « الميزان الجديد » صفحة ٧٣ :

« لقد تصفحت مثلا « أعاصير مغرب » للعقاد فعجبت لمن يجرؤون على تسميتها شعرا ، وهي نثرية في مادتها ، نثرية في أسلوبها ، نثرية في روحها ، ونثريتها بعد مبتذلة سميكة ، حتى الاحساس فيها شيء لا تطمئن اليه النفس . الادب الجيد لا بد ان يلونه الاحساس ، وصاحب « أعاصير مغرب » من الكتاب الذين قد تبهرك مهارتهم العقلية في التمزيج ، ولكنني لا أذكر الا في النادر الذي لا يذكر انه قد استطاع يوما ان يحرك في نفسي احساسا ، فكيف له بقول الشعر ؟ وكيف يجوز لنا ان نقارن شعرا كالاعاصير ونحوها بشعر الهجر الحي ؟ » .

كان ذلك هو رأي مندور في البداية ، ولكن مندور طور هذا الرأي بعض التطوير وعدل فيه عن التطرف الذي يكاد يجعله من أعداء العقاد وذلك في كتابه عن « الشعر المصري بعد شوقي » ، وفي هذا الكتاب يناقش مندور شاعرية العقاد فيعود الى انتقاد ما فيها من « لغة عقلية جافة » و « ضعف في الاحساس الوجداني » ولكنه يقول في ختام دراسته :

« وبالرغم من كل ذلك فاننا لا نريد ان نترك الحديث عن العقاد قبل أن ننصفه ، ونحن ننصفه من أنفسنا أو من القراء بقدر ما ننصفه من نفسه ، فنقرر ان العقاد لم يحرم من الشاعرية ، ولكن شاعريته ليست تلك الشاعرية الفكرية التي يعتز بها كعملاق من عمالقة الفكر ، وانما هي تلك الشاعرية الساذجة التي استطاعت أحيانا ان تفلت من العملاق وكبريائه لتشكو الحياة كما شكاها جميع الشعراء ، في لغة مباشرة ساذجة ... ومن الغريب ان نلاحظ ان هذا العملاق الاعزب شديد الشغف بالاطفال ، رفيق الشعر في حديثه اليهم او عنهم ، وله في هذا قصائد تذكرنا بنغمات فيكتور هيغو في قصائده التي نظمها كجد وجمعها في ديوان خاص . ففي الجزء الاول من ديوانه ص ٤٩ تحت عنوان « غيرة طفلة » نراه يقول :

ما كان أملح طفلة من غير شيء تخجل
ضاحكتها فتمايلت وشعورها تتهدل
ورجوت منها قبلة فأبت كمن يتدلل
وتمنعت وهي تصدني حينا وحينا تقبل
فرفعت مرآة لها فتطلعت تتأمل
قلت انظري في وجهها أفأنت أم هي أجمل
قالت وفيها غضبة أنا باللاحة أمثل
ومضت تقول الى متى تنسى الجميل وتجهل
وأقول أيكما اذن أدعو بها فأقبل
عطفت علي وكل محبو ب يغار فيسهل

ففي هذا الشعر الخفيف اللطيف او الرقيق المؤثر لا نلمح اثرا للعملاق وجبروته ، ولكننا نحس روحا شاعرية لطيفة في تصوير تلك الطفلة العابثة المدلة في تمايلها وشعورها المهدلة » .

ثم يقول مندور بعد أن يقدم عدة نماذج من القصائد التي تتوفر فيها شاعرية العقاد :

« .. العقاد غير محروم من روح الشعر ولا من نبض الحياة . ولكنه اصطنع ، راضيا أو كارها ، لنفسه شخصية عملاقة متجبرة أرادت أن تصرع الشعر ، وأن تصرع الحياة ، ولكن هيهات ! فالعقاد لم يقل شعرا الا عندما هزمته روح الشعر وسيطرت عليه . وأما عندما يتعالى العملاق ويصول ويجول فان الشعر يولي الفرار » .

هذه هي الاتجاهات الثلاثة في موقف النقاد والباحثين من شعر العقاد :

اتجاه يعجب بشعر العقاد ويرى فيه نموذجا للشعر الاصيل ، ويمثل هذا الاتجاه تلاميذ العقاد وأصدقاؤه ، حيث نجدهم في نفس الوقت معجبين بكل ما يكتبه العقاد من نثر أو شعر بلا استثناء ولا تفريق .

والاتجاه الثاني رافض لشعر العقاد مستنكر له حيث يرى ان العقاد محروم من الشاعرية .

والاتجاه الثالث معتدل يأخذ على العقاد في شعره بعض الاخطاء والمآخذ ويسجل له ـ في نفس الوقت ـ ما في شعره من عناصر الجمال والفن ومن لحظات الشاعرية السليمة المنطلقة .

فما هي الحقيقة حول « شاعرية العقاد » ... ذلك الجانب الذي شغل الباحثين والنقاد في أدب العقاد ولم يتفقوا فيه على رأي واحد ؟

رغم كثرة انتاج العقاد من الشعر ، ورغم انه واصل هذا الانتاج الشعري منذ صدور ديوانه الاول سنة ١٩١٦ حتى قبيل وفاته سنة ١٩٦٤ ، فاننا نلاحظ ان العقاد لم يترك وراءه مدرسة شعرية واضحة تأثرت به والتزمت بطريقته الفنية ، فلا يوجد شاعر بارز واحد بعد العقاد يمكن ان نقول انه تلميذ « مدرسة العقاد في الشعر » ، وذلك على العكس تماما من تأثير العقاد في النقد الادبي ، أو تأثيره في الدراسات الاسلامية والفكرية بشكل عام ، فقد تأثر الكثيرون بالعقاد في النقد وفي الدراسات الفكرية تأثرا ملموسا واضحا . ويمكننا ان نقول ايضا ان كثيرين من الشعراء الذين ظهروا بعد العقاد قد تأثروا بأفكار العقاد وآرائه في الشعر دون ان يتأثروا بشعره . ذلك لان آراء العقاد في الشعر كانت من أوضح وأعمق ما أضافه العقاد الى النقد العربي المعاصر .

فما هو سر هذه الظاهرة ؟.. لماذا لم يترك العقاد وراءه مدرسة شعرية تتأثر به رغم غزارة انتاجه الشعري واستمراره في هذا الانتاج لمدة تقرب من خمسين سنة متصلة صدر له فيها اكثر من عشرة دواوين ؟

ان بعض الشعراء الذين ماتوا في سن مبكرة ، وتركوا وراءهم انتاجا أقل بكثير مما تركه العقاد ، كان لهم من التأثير الفني في شعراء جيلهم وفي الشعراء الذين ظهروا بعدهم أكثر بكثير مما كان للعقاد . فأبو القاسم الشابي مات في حوالي الخامسة والعشرين من عمره ولم يكن له سوى ديوان واحد هو « أغاني الحياة » ولكن روح الشابي سرت لفترة طويلة في الشعر العربي ، وكان من الممكن على الدوام أن نلتقي بهذه الروح فيما نقرأه من قصائد الشعر العربي

الذي ظهر بعد وفاة الشابي . وهذا نفسه ما يمكن ان يقال عن شعراء اوروبيين آخرين ، فهناك الشاعر الفرنسي « رامبو » الذي ترك الشعر في سن مبكرة ، ومع ذلك ترك آثارا واضحة على الشعر الفرنسي في عصره ومن بعده .

وهكذا فان تاثير الشاعر ليس بغزارة انتاجه ، وانما يكون هذا التاثير بمدى القوة الكامنة في شخصية الشاعر وما في هذهالشخصية من تعبير عن وجدان العصر وحساسيته . والحقيقة ان العقاد لم يكن يملك هذه الشخصية المؤثرة في شعره ، كما كان يملكها في نقده او في دراساته الفكرية المختلفة .

ومن هنا لم يترك وراءه مدرسة شعرية تتاثر به وتمشي على طريقه .

واي نظرة موضوعية دقيقة في شعر العقاد تكشف ان هذا الشعر كان يعاني من عيوب رئيسية اضعفته وقللت من تاثيره ... ومثل هذا الراي الموضوعي لا علاقة له باتجاه الذين يعجبون بكل ما صدر عن العقاد من نثر وشعر وفكر ، وليس له علاقة برأي الذين يستنكرون كل ما كتبه العقاد ، ولكنه رأي موضوعي بعيد عن هوى الحب الاعمى او الكراهية العمياء .

فما هي العيوب الرئيسية في شعر العقاد ؟

أهم ما يواجه القارىء لشعر العقاد هو الطابع العقلي الذي يسيطر على هذا الشعر ، فهو شعر يصدر عن العقل ، ويعبر عن مجموعة من الافكار المجردة ، ويتميز بما في هذه الافكار التجريدية من جفاف وبرود . والفكر بالطبع عنصر رئيسي من عناصر الشعر الجيد الاصيل . ولكن الشعر في أساسه فن من فنون الوجدان ، فلا بد أن يكون وراء القصيدة تجربة انسانية تهز قلب الشاعر وتدفعه الى كتابة قصيدته ، وبدون هذه التجربة الانسانية ، وبدون هذا الانفعالالعميق لا تنفع الافكار المجردة مهما كانت قيمتها في بناء القصيدة الشعرية . ومن الملاحظ في شعر العقاد ان الكثير من قصائده تبدأ بمقدمة نثرية يشرح فيها فكرة القصيدة ويحاول ان يساعد القارىء على فهم مضمون القصيدة ، كما ان قصائده تكثر بها الهوامش التي تشرح معنى بيت او لفظ ، والمقدمات والهوامش تكشف كلها ان العقاد نفسه كان يحس انه يصوغ في شعره مجموعة من الافكار العقلية المجردة التي تحتاج الى الشرح والتفسير .

فعندما يقول العقاد مثلا عن « القرد » في حديقة الحيوان :

انتظر يا صديق شيئا فشيئا
تطبخ القوت كله بيديكا
غير اني اخال ما كان نيئا
منه اجدى في الحالتين عليكا
انتظر يا صديق مليون عام
او ملايين لست والله ادري
ان تدانيت بعدها من مقامي
فقصارى المطاف أن لست تدري

هذه الابيات لا يمكن فهمها بدون مقدمة العقاد التي يقول فيها : « ما بال هذا القافز الماهر قد وقف حيث هو في سلم الرقي ، ولم يات على درجات السلم صعودا ووثبا في بضعة ملايين من السنين ؟ هذا سؤال ، وسؤال آخر نعود فنساله : ماذا يفيد من الصعود ، ان كان قد صعد ، الطعام المطبوخ ؟.. هو ياكل الآن طعامه نيئا ، وذلك انفع . أو ياكله مطبوخا على يد غيره وذلك ادنى الى الراحة . أو يفيد العلم ؟

... قصاراه اذن ان يقول « لست أدري » كما يقولها الانسان كلما واجه معضلات الوجود » .

هذه هي مقدمة العقاد التي تفسر لنا أبياته عن القرد ، وهذه المقدمة هي التي تساعدنا على ان نفهم تلك الابيات والا ما استطاع احد ان يفهمها لشدة غموضها . فنحن اذن امام أبيات تخاطب الذهن ولا تخاطب الوجدان . كما انها حتى في مخاطبتها للذهن تبدو غامضة صعبة على الفهم مما يحتاج معه العقل الى تفسير وشرح .

والابيات تتضمن هذه المعاني العقلية الجافة المباشرة :
فعندما يقول العقاد للقرد :

انتظر يا صديق شيئا فشيئا
تطبخ القوت كله بيديكا
غير اني اخال ما كان نيئا
منه اجدى في الحالتين عليكا

فانه يقصد بذلك الاشارة الى نظرية التطور التي تقول ان القرد هو أصل الانسان ، ومن هنا يقول العقاد للقرد انتظر « شيئا فشيئا » ، أي انتظر زمنا كافيا ، فسوف تتحول الى انسان ، ولما كان الانسان هو الذي يطبخ القوت بيديه ، لان بقية الحيوانات ـ ومن بينها القرد ـ تاكله نيئا ، فان غاية تطور القرد أن يصبح انسانا ثم « يطبخ القوت بيديه » . وهكذا يشير العقاد في البيت الاول الى نظرية التطور ، ثم يشير الى أحد الفوارق بين الانسان والقرد ، وهذا الفارق هو طبخ القوت . أما في البيت الثاني فهو يقدم لنا بعض المعلومات الطبية وهي ان « الطعام النيء » أجدى وأكثر فائدة من الطعام المطبوخ وهو أجدى في الحالتين ـ أي في حالة القرد وحالة الانسان معا ـ على صحة الجسم . والمعنى العام للبيتين هو ان العقاد يقول للقرد : ان حالته ليست سيئة ، لانه لو انتظر بعض الوقت فسوف يتطور الى انسان يطبخ الطعام بدلا من ان ياكله نيئا ، بينما الطعام النيء أفضل وأصح .

بعد ذلك يقول العقاد :

انتظر يا صديق مليون عام
أو ملايين لست والله أدري
ان تدانيت بعدها من مقامي
فقصارى المطاف أن لست تدري

ومعنى هذين البيتين ان العقاد يقول : انتظر مليون عام أو عدة ملايين وبعدها سوف تصبح انسانا حسب نظرية التطور . ولكن ما جدوى تطورك الى انسان ؟ هل المعرفة هدف لك يمكن ان تسعى اليه ؟.. ان أقصى الجهد في هذه المعرفة انك سوف تقول في النهاية : لست أدري . لان اكبر العلماء في تاريخ الانسانية يقفون أمام أكوام المعرفة حائرين أمام مشاكل الانسان الكبرى حيث يقولون : لسنا ندري ما هي الحقيقة .

هذه هي مجموعة الافكار التي شحن بها العقاد أبياته الاربعة عن « القرد » ، وهي أفكار مجردة ، ومعان خالية من أي ايحاء نفسي أو تاثر شعوري حقيقي بتجربة من التجارب . والابيات أشبه بمداعبات يكتبها كاتب من باب « العبث والتسلية » لا من باب الفن الحقيقي ، ولكن الكثير من شعر العقاد يقوم على هذا الاساس الفكري التجريدي الخالي من الانفعال الوجداني العميق .

وقد تذكرت وأنا أقرأ هذه الابيات قصيده قصيرة للمتنبي وهو يمر بمكان اسمه « الفراديس » في الشام حيث سمع اثناء مروره بهذا المكان زئير بعض الاسود ، فكتب هذه القصيدة التي لا تزيد في ديوانه عن اربعة أبيات ، والعقاد ـ مثل المتنبي ـ كتب قصيدته عن القرد في مناسبة معينة هي زيارته لحديقة الحيوان ... وقد قرأنا ما قال العقاد عن القرود ، وما أوحت اليه به هذه القرود ... فماذا قال المتنبي عندما سمع زئير الاسود ؟ لقد كتب المتنبي هذه الابيات

الاربعة :

اجارك يا اسد الفراديس مكرم
فتسكن نفسي ام مهان فمسلم
ورائي وقدامي عداة كثيرة
احاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفي على ما اريده
فاني باسباب المعيشة اعلم
اذن لاتاك الخير من كل وجهة
واثريت مما تغنمين واغنم

هنا نجد موقفا نفسيا متناسقا وعميقا ومختلفا تمام الاختلاف عن موقف العقاد : ان زئير الاسود بالنسبة للمتنبي لم يكن مصدرا للافكار المجردة عن الاسد ملك الغابة وعن القوة والضعف وما الى ذلك ، ولكن المتنبي صور لنا حالة نفسية شعورية مرتبطة اشد الارتباط بزئير الاسود ، انه يعبر في البيت الاول عن حالته النفسية الخاصة وهي حالة « القلق والخوف » ولذلك فهو يخاطب الاسود قائلا : هل سوف اكون مكرما فاهدأ واستريح ، ام انني سوف اهان واخذل ؟.. ويختار الشاعر كلمة ذات دلالة نفسية وشعورية عميقة هي كلمة « الجار » فيقول : « اجارك يا اسد الفراديس ... » . وكلمة « الجار » تكشف عن وجدان الشاعر ، انه الوجدان القلق الملهوف الذي يطلب السلام ، ويتمنى ان تنتهي لحظة الخطر بالامان والخلاص، وهو يحمل في نفسه هذه المشاعر المسالمة ويرجو ان يجد لها صدى عند الاسود ، فهو ليس « عدوا » ولا « فريسة » ولا اي شيء آخر... انه « جار » بكل ما تحمله كلمة الجيرة من رغبة عميقة في الود والامان والسلام . ولكن الشاعر مع ذلك يحس انه في خطر ، وانه لا يدري هل ينجو من الاسود ، او ان زئير الاسود سوف يكون انذارا بالشر ؟ ثم نقرأ البيت الثاني فيزداد شعورنا بقلق الشاعر وحالته النفسية المضطربة ، ذلك لان زئير الاسود يذكره بالوحشة التي يعانيها في طريقه وبالمخاطر الاخرى التي تواجهه ، ان الشاعر هنا يدفع لحظة القلق الى قمتها وينقلها الينا بقوة وعمق :

ورائي وقدامي عداة كثيرة
احاذر من لص ومنك ومنهم

فوحشة الطريق توحي بالخوف والحذر من اللصوص ، والشاعر من ناحية اخرى له اعداء كثيرون يتربصون به ، واخيرا تاتي هذه الاسود لتزيد مخاوفه وشعوره العميق بالقلق والحذر ... ان الشاعر في هذا البيت يضعنا معه ـ بعمق وقوة ـ في قلب حالته النفسية ، وفي قلب اللحظة الشعورية التي يعاني منها ويعبر عنها اصدق تعبير ... انها لحظة القلق والحذر والشعور بالخطر .

وينتقل الشاعر في البيت الثالث الى حوار اشبه بالحوار الباطني في داخله ، ولكنه صورة حوار بينه وبين الاسود ، وهو حوار من جانب واحد ، ان الشاعر يقول للاسود :

فهل لك في حلفي على ما اريده
فاني باسباب المعيشة اعلم

هنا ينتقل بنا الشاعر من لحظة الخوف والحذر الى لحظة الامل ... وميلاد الامل في لحظات الخطر الشديد هو حقيقة لا جدال فيها . فدائما في هذه اللحظات تحاول الحياة ان تعبر عن نفسها ببارق من الامل ، ولو كان هذا الامل هو الشعاع الاخير في المصباح ، فتلك طبيعة الانسان ، وتلك طبيعة الحياة التي لا تستسلم لليأس النهائي قبل ان تبذل اقصى ما لديها في سبيل الخلاص . والامل الجميل عند الشاعر هو ان يعقد حلفا مع الاسود ، في سبيل تحقيق ما يريده ، وكانه يريد ان يغوي هذه الاسود بعدم ايذائه ، ويقول لها انها لن تخسر في هذا الحلف الذي سوف يحصل فيه على الامان ، وتستفيد منه ما لديه من خبرة واسعة بامور الحياة .... وفي البيت الرابع ، تاكيد لمعنى البيت الثالث حيث يكشف الشاعر فيه عما سوف يستفيده الطرفان من هذا الحلف :

اذن لاتاك الخير من كل وجهة
واثريت مما تغنمين واغنم

وما اجمل هذا البيت الاخير الذي يبلغ فيه الشاعر درجة عالية من الاندماج في حلمه وامله ، وكانه بالفعل قد نجا وحقق التحالف مع الاسود وشاركها حياتها وعاشا معا في خير كثير يقتسمان ما يغنمان معا في الغة ومشاركة كاملة .

في هذه القصيدة القصيرة نعيش مع شاعر يعبر عن تجربة نفسية واضحة ، حيث ينقل لنا في ابياته حقيقة مشاعره وحقيقة ما ينبض به قلبه ، وحيث نرى « الاسود » من خلال حالة الشاعر النفسية ، وهي حالة اساسها الخوف والاحساس بالخطر والحذر . وفي اعماق هذه الحالة النفسية يتمنى الشاعر في نفس الوقت ان يتخلص من المحنة التي يعانيها ، ويحلم بمشاركة الاسود حياتها في نوع من الجوار الآمن المتعاون الحقيقي حتى يستطيع ان يتخلص مما يعانيه .

تجربة انسانية صادقة ، وانفعال نفسي واضح مؤثر ، واحساس وجداني حقيقي عبر عنه المتنبي ومس قلوبنا ومشاعرنا .

اما العقاد فقد وقف من القرد موقف المفكر المتفلسف الذي لا يكشف اي جانب من جوانب نفسه ، ولا يعبر في ابياته عن اي انفعال او نبض او شعور انساني ... ان ابياته اشبه بعملية تشريح الضفدعة التي يقوم بها طلاب الطب في السنوات الاولى من دراستهم.

ويذكرني موقف العقاد من القرد ايضا بابيات لشاعر عربي قديم يخاطب فيها « جمله » فيقول :

شكا الي جملي طول السرى
يا جملي ليس الي المشتكى
صبرا جميلا فكلانا مبتلى

هنا نحس ايضا بتجربة الشاعر النفسية ، وبما في قلبه من حزن والم ، وما فيه من حنان دفعه الى الاحساس بان جمله يحدثه ويشكو اليه الطريق الطويل ، وتتحول العلاقة بين الشاعر والجمل الى علاقة انسانية حميمة ، كما تحولت بين المتنبي واسوده ، وهنا يقول الشاعر لجمله : « صبرا جميلا فكلانا مبتلى » ... اي ان الشاعر وجمله شريكان في المحنة شريكان في العذاب .

وهذا ما اعنيه بانعدام التجربة الانسانية في معظم شعر العقاد ، ووقوف شعره دائما عند حدود التأملات العقلية الجافة الجامدة . وليس معنى هذا ان العقاد قد انعدمت في حياته التجارب الانسانية ، فلا شك ان حياته مليئة بهذه التجارب الخصبة العميقة ، وانه عبر عن كثير من هذه التجارب في كتاباته النثرية تعبيرا صادقا اصيلا ، ولكنني اتحدث عن شعره ... حيث يبدو هذا الشعر صادرا من العقل ومن مجموعة الافكار التي يحملها هذا العقل دون ان يجعل تجاربه الانسانية منبعا لشعره ومصدرا اساسيا له . فعندما يتحدث العقاد عن « القرد » فان هذا الحيوان عنده هو « نوع » القرود ، وهو يثير في ذهنه مقابلة بينه وبين « نوع » الانسان ثم يحرك في هذا الذهن ما فيه من افكار مختلفة عن داروين ونظرية التطور ، وعن قيمة المعرفة الانسانية ، وهل تتوصل بالانسان الى نتائج معينة ام انها تقف عند حد معلوم .

ولكن المتنبي في قصيدته عن « الاسود » يقدم لنا الموقف كله في ضوء علاقة انسانية ونفسية محددة يخلقها بينه وبين هذه الاسود .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٥٠ ـ

العقـاد الشاعـر

ـ تابع المنشور على الصفحة ٢٢ ـ

فنحس انها « أسود » المتنبي وليست أسود « السيرك » ، ولا اسود حديقة الحيوان ولا أسود الغابة . وكذلك فعل الشاعر القديم في حديثه عن جمله . وهذا هو الفارق بين الشعر عندما يرتبط بالعقل والفكر البارد الجاف وبين الشعر عندما يرتبط بالتجربة الانسانية والنفسية للشاعر .

والاساس في شعر العقاد هو هذه النزعة العقلية الجافة التي تعتمد على الافكار المجردة الباردة ، ولكنه عندما يتمكن في بعض اللحظات القليلة الساطعة أن يتخلص من هذه النزعة العقلية الباردة فانه يصل الى منابع الشعر الحقيقي ويستطيع أن يمس قلوبنا من خلال بعض قصائده القليلة . وفي مجال الموضوع الذي نافشناه وهو العلاقة النفسية بين الشاعر وبين الحيوانات المختلفة ، نجد للعقاد قصيدة تفيض بالرقة والعذوبة والنزعة الانسانية هي رثاؤه الشهير لكلبه « بيجو » ... هنا ينسى العقاد جفافه العقلي ويتحرك قلبه وينبض في أبيات هذه القصيدة ، ذلك لان هذا الكلب قد عاش المواقف اليومية واللحظات الخاصة ، ومن خلال هذه الذكريات الانسانية المبعثرة ، ومن خلال الالفة الطويلة بين العقاد وكلبه خرجت هذه القصيدة الرقيقة ، وان لم تسلم هذه القصيدة الجميلة نفسها من عيوب أخرى للعقاد سوف نعرض لها بعد قليل ، ولكن القصيدة عموما تكشف عن تجربة انسانية صادقة يحسها الشاعر بقلبه ويعيش فيها بوجدانه ، وتكشف القصيدة ايضا عن العلاقة الحميمة التي أنشأها الشاعر مع كلبه وتحولت الى ود والفةوصداقة، وعندما مات الكلب ، كان هذا الموت مناسبة لكشف ما يعانيه الشاعر من وحدة ووحشة واحساس بالغربة ... يقول العقاد في بعض مقاطع هذه القصيدة ، حيث لا تخفى النبرة الانسانية الصادقة الحزينة :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تثور الضلوع
حزنا عليه جهد ما أستطيع
وان حزنا بعد ذاك الولوع
والله ـ يا بيجو ـ لحزن وجيع
حزنا عليه كلما لاح لي
بالليل في ناحية المنزل
مسامري حينا ومستقبلي
وسابقي حينا الى مدخلي
كأنه يعلم وقت الرجوع

هنا صور انسانية حقيقية ، ولهفة حارة صادرة من اعماق القلب والوجدان ، وبعد عن الافكار الباردة التي تحس انها مفروضة على التجربة الشعرية بشكل يسحق هذه التجربة ويفقدها كل ما فيها من حرارة وحنان .

على ان النزعة العقلية عند العقاد من جانب اخر قد استطاعت ان تترك بعض الآثار الايجابية في شعره ، ومن هذه الآثار ما يبدو في موضوعاته الشعرية من عمق وتنوع وتجديد واضح ، فكثير منموضوعات العقاد الشعرية تعتبر من افضل الموضوعات وارقاها في الشعر العربي المعاصر ، ولكن العلة الكبرى في هذا الشعر هي ان العقاد قد عالج هذه الموضوعات بطريقة جافة باردة مما أفقدها الكثير من قيمتها وتاثيرها الفني والنفسي ، على ان اختيار هذه الموضوعات العميقة الجديدة المتنوعة هو في حد ذاته جانب ايجابي بارز في شعر العقاد ، فنحن نجد على سبيل المثال ان « الشيطان » بما يوحيه من معان وأفكار متعددة يحتل مكانا بارزا في شعر العقاد ، فقد كتب اكثر من قصيدة عن « الشيطان » وتناوله من زوايا متعددة ، وجعل منه رمزا للتمرد والثورة ، وأسقط على شخصيته كثيرا من المعاني الثائرة المتمردة في نفسه هو ، بل لقد عكس في شخصية الشيطان معنى الشك الذي ثار في نفوس ابناء جيل العقاد من المثقفين تحت تاثير الحرب العالمية الاولى التي زعزعت كثيرا من القيم وأثارت في العقول كثيرا من موجات الارتياب والقلق .

وأشهر قصيدة للعقاد في هذا المجال هي قصيدة « ترجمة الشيطان » التي نشرها في ديوانه الثالث « أشباح الاصيل » ، وهي قصيدة تزيد على مائتي بيت قدم لها بهذه المقدمة :

« في هذه القصيدة قصة شيطان ناشيء سئم حياة الشياطين وتاب من صنعه الاغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين بالطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحور العين والملائكة المقربين . غير انه ما عتم ان سئم عيشة النعيم ومل العبادة والتسبيح وتطلع الى مقام الالوهية لانه لا يستطيع ان يرى الجمال الالهي ولا يطلبه ثم لا يستطيع ان يطلبه ويصبر على الحرمان منه ، فجهر بالعصيان في الجنة ومسخه الله حجرا فهو ما يبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وايات الفنون . وقد نظمت هذهالقصيدة في أواخر الحرب العظمى فكل ما فيها من الالم واليأس فهو لفحة من نارها وغيمة من دخانها » .

هذا هو الموضوع الشعري العميق الذي وضع العقاد يده عليه ، وحاول ان يعبر من خلاله عن ثورة نفسه وتمرد جيله وقلق العصر الجديد الذي بدأ مع الحرب الاولى وألهب في نفوس الناس نيران الشك . ولكن العقاد عندما صاغ هذا الموضوع الشعري الخصب أضعفه بالنزعة العقلية الجافة الباردة وحوله من ملحمة شعرية الى « منظومة » طويلة لا روح فيها ولا تمرد ولا حياة . ويكفي أن نقرأ جزءا من هذه القصيدة ذات الموضوع الشعري الخصب حتى نكتشف ان العقاد قد قضى على ما في الموضوع من شاعرية بالجفاف والبرود وضعف الصياغة وغموضها .

وهذه هي الابيات الاولى من القصيدة :

صاغه الرحمن ذو الفضل العميم
غسق الظلمة في قاع صقر
ورمى الارض به رمي الرجيم
عبرة فاسمع أعاجيب العبر
خلقة شاء لها الله الكنود
وأبى منها وفاء الشاكر
قدر السوء لها قبل الوجود
وتعالى من عليم قادر
قال كوني محنة للابرياء
فأطاعت ، يا لها من فاجرة
ولو استطاعت خلافا للقضاء
لاستحقت منه لعن الآخرة
علم الاقيال قدما سرها
فأقاموا دينه في العالمين

وفي هذه القصيدة ذات الموضوع الشعري الرائع ، والصياغة الجامدة الجافة الغامضة ، اضطر العقاد الى ان يكتب ما يقرب من ثلاثين صفحة يشرح فيها بعض المعاني الصعبة المعقدة التي وجد هو نفسه فيها ما ينبغي شرحه للقارىء ... ومن امثال هذه الهوامش ما كتبه شرحا للبيت الاخير في المقطوعة السابقة وهو :

علم الاقيال قدما سرها
فاقاموا دينه في العالمين

ويقول العقاد في الهامش حول هذا البيت الذي لا يمكن فهمه بدون شرح العقاد :

ان هذا البيت « اشارة الى كلف اكثر الملوك ببناء المعابد تعزيزا لقوتهم بقوة العقائد » .

فالموضوعات الشعرية الخصبة كثيرة عند العقاد ، ولكن طريقته في الاداء الشعري العقلي الجاف البارد تفسد هذه الموضوعات وتقضي على قيمتها وتأثيرها الوجداني .

هناك قيمة ايجابية اخرى في شعر العقاد غير موضوعاته الشعرية نتجت عن عمقه واتساع ثقافته ، هذه القيمة هي ان العقاد يحاول في كل شعره ان يعبر عن فلسفة عامة واضحة ، وخلاصة هذه الفلسفة هي الجمع بين التمرد على الحياة والرضا عنها في نفس الوقت ، فهو ثائر ومتمرد ورافض لكثير من أوضاع الانسان والحياة ، ولكن هذه الثورة لم تنته به الى دعوة يائسة ، بل هو يدعو على العكس الى الاحتمال والتمسك بكل ما في الحياة من جمال وعدم الاهتمام بما في الحياة من شرور وأخطاء ... ان فلسفة العقاد في شعره هي ـ في مجملها ـ دعوة للاقبال على الحياة واحتمالها مهما كانت مشاكلها ومصاعبها ، وهو لا يفكر في الهروب أو الموت أو الانتحار ، بل يدعو الى الرضا والاحتمال ، وهو يقول في تلخيص هذه الفلسفة :

اذا اطمأن الى البأساء صاحبها
فاهون الحال ما تدعونه فشلا

وتبلغ هذه النزعة عند العقاد أحيانا درجة يعبر فيها عن رضاه حتى بالحياة ، مجرد الحياة ، حتى لو كانت مليئة بالشر والخطأ ... يقول في احدى قصائده :

اعفيك من حلية الوفاء ... انك احلى من الوفاء
خوني ، فما أسهل التقصي ... عندي وما أسهل الجزاء
وليس بالسهل في حسابي ... فقدك يا زينة النساء

فهو هنا مستعد أن يقبل حبيبته وهي خائنة له وغير وفية ...

ولكنه ليس مستعدا لفقدان هذه الحبيبة ... انه يقبل الحياة بأخطائها وشرورها ولكنه لا يقبل فقدان الحياة . وهذه ، واذا كانت الابيات السابقة تشارك في الدلالة على فلسفة القبول بالحياة والرضا عنها في شعر العقاد ، الا انها صورة شعرية غريبة ومثيرة للنفور ... انها صورة العاشق الذي يقول لحبيبته : « خونيني . فالحياة عندي سهلة ولكن الصعب هو أن أفقدك » ... ان الحب يبدو هنا نوعا من اللهو والعبث ويفقد كل ما فيه من صدق وعمق ، فالعاشق الحقيقي قد يحتمل خيانة حبيبته ، ولكنه لا يحتمل هذه الخيانة في سرور ورضا ، ولا يعتبرها أمرا سهلا ... انه قد يحتملها كجرح عميق في قلبه وكرامته دون ان يكون الامر بهذه السهولة الساذجة التي يصور بها العقاد خيانة الحبيبة في قصيدته ... فهذه الابيات تعطينا فكرة واضحة عن فلسفة العقاد الراضية التي تقبل الحياة على علاتها في شعره ... ولكنها من ناحية اخرى تقدم لنا تجربة شعورية فيها الكثير من التلفيق وعدم الصدق .

وهذه الفلسفة الراضية بالحياة المقبلة على الدنيا في شعر العقاد تصل به أحيانا الى حد اللامبالاة حيث يقول :

سيان مهما افترق الضدان
سيان مهما اختلف الخصمان
سيان بيد هي أو مغاني
سيان نور أو ظلام فان
سيان من يلهو ومن يعاني

هذه فلسفة العقاد التي يحاول أن يعبر عنها في معظم شعره ولكن بطريقته الشعرية الجافة الباردة وصياغته الصعبة الغامضة التي تصل أحيانا الى حد الضعف والركاكة .

على ان حرص العقاد على التعبير عن موقف متكامل من الحياة هو جانب ايجابي لا شك فيه بالنسبة لاي شاعر ، ذلك لان الشاعر الصغير وحده هو الذي يعيش على اللحظة العابرة ولا يحاول ان يصل الى موقف متكامل وفلسفة شاملة أو شبه شاملة من الحياة والانسان .

وهكذا نجد ان النزعة العقلية الجافة الباردة في شعر العقاد تمثل عيبا رئيسيا في هذا الشعر رغم ما تمنحه للعقاد من قدرة على اختيار موضوعات شعرية جديدة وأصيلة ، وما تمنحه له من فلسفة عامة في الحياة والانسان ووجهة نظر عامة متكاملة .

على ان النزعة العقلية الجافة في شعر العقاد ليست هي العيب الوحيد وان كانت عيبا رئيسيا وهاما ، ففي شعر العقاد عيوب أخرى أساسية أضعفت من تأثير شعره وقيمته .

ومن هذه العيوب ما نجده في شعر العقاد من « نثرية » ملحوظة ، فللشعر لغته الخاصة ، وقد حاولت مدارس التجديد في الشعر العربي والعالمي أن تقترب بالشعر من النثر لتقترب به من حياة الانسان اليومية ، ولكن هذه المحاولة ظلت في اطارها الفني الصحيح، وهو الاطار الذي يحافظ للشعر على لغته الخاصة التي تميزه عن النثر حتى وان اقتربت منه ، ففي الشعر لا بد ان يكون للالفاظ ايحاءات وظلال ، أما في النثر فالكلمات تبدو مباشرة ومجردة من هذه الايحاءات والظلال ، لان وظيفة النثر الاساسية هي أن ينقل الحقائق وان يعبر عن الافكار ، وهناك لون من النثر الفني يقترب فيه الكاتب من روح الشعر ومن وظيفته عندما يريد أن يعبر بالنثر عن تجارب نفسية وشعورية ، وهنا فان الكاتب يحاول أن يقترب بنثره من لغة الشعر ويستعين بها .

ولكننا نجد ان شعر العقاد يعاني معاناة واضحة من « النثرية » التي تفقد القصيدة روح اللغة الشعرية النقية المليئة بالظلال والايحاء . ولنقف أمام نماذج متفرقة من شعره ، نختارها بدون قصد من بين دواوينه ، وسوف نحس منذ اللحظة الاولى بالنثرية التي تصل أحيانا الى درجة التعبير الركيك أو التعبير الغامض .

في ديوانه « أعاصير مغرب » يقول العقاد :

كلكم كلكم مع الغالب الظا ... لم ، لا تعدموا من الظلم رغما
لو وقفتم يوما الى جانب المغلوب ما فاز غالب قط ظلما

فالبيت الاول ثقيل الصياغة خشن الالفاظ ، وهو يتكون من مقطعين ، مقطع تقريري هو « كلكم كلكم مع الغالب الظالم » ، والمقطع الثاني « دعوة » من الشاعر ضد الناس الذين يقفون مع الظالم ... انه يدعو عليهم « ألا يعدموا الارغام المستمر من الظلم » ما داموا قد وقفوا مع الغالب الظالم . وهذا المقطع الثاني من البيت شديد الركاكة في تركيبه ، وهو من ناحية اخرى يضع حاجزا نفسيا بين الشاعر والناس ، فالشاعر في هذا البيت يحاول أن يحض الناس على الوقوف الى جانب المغلوب ، والذي يريد ان يدعو الناس الى دعوة معينة لا يبدأ هذه الدعوة بالهجوم على الناس وتمني الالم لهم والدعاء عليهم بأن يظلوا فريسة للظالمين ... ان المدخل النفسي الصحيح هنا كان ينبغي ان يعتمد على الرقة ومحاولة اكتساب عاطفة

الاخرين الى جانب القضية التي يدعو اليها ، أما البيت الثاني فهو بيت تقريري مباشر سطحي لا شعر فيه ولا حكمة ، فاين الشعر هنا في هذا الكلام التقريري « لو وقفتم يوما الى جانب المغلوب ما فاز غالب قط ظلما » ؟.. ان هذه الكلمات الخالية من الشعر أشبه بالنصائح الدارجة مثل قولك « الوقاية خير من العلاج » . وهذا البيت بأكمله لا يزيد شيئا عن لغة الصحف اليومية .

وفي نفس الديوان « أعاصير مغرب » نقرأ :

ثروة المرء بما يطلبه لا بما يملكه بين يديه

وهو أيضا بيت تقريري مباشر نثري خال تماما من لغة الشعر ... وبعد هذا البيت نقرأ :

مالك الارض فقير ان رعى مطلبا يطمح بالعين اليه

وهو أيضا بيت تسيطر عليه الصياغة النثرية تماما ، كما أن « الطموح » لا يكون ابدا بالعين وانما يكون بالفكر او بالشعور . ثم نقرأ في البيت الثالث من نفس القصيدة هذه العبارات النثرية الركيكة المعقدة :

والذي أفقر منه طالب ود قلب ما له ود لديه

ومعنى هذا البيت « ان أفقر الفقراء هو الذي يطلب حبا عند قلب لا يحبه » ، ولكن الصياغة النثرية الغامضة الخالية من الشعر حولت هذا المعنى البسيط الى « والذي أفقر منه طالب ود قلب ما له ود لديه » . وهذه اللغة هي في الحقيقة لغة نثرية مباشرة قريبة من لغة ألفية ابن مالك ... لغة « كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... » وغيرها من المنظومات المعروفة في اللغة العربية .

وتصل هذه النثرية أحيانا الى حد العجز والفقر الشديد في اختيار الالفاظ والعبارات بحيث تبدو الصياغة ركيكة وليست مجرد صياغة نثرية عادية خالية من لغة الشعر .

يقول العقاد في مقطوعة له بعنوان « أتمنى » :

أتمنى يوما لو ان حياتي
تنقضي كلها ولا أتمنى
أتمنى وقد أطلت التمني
لو تعلمت كيف أن أتمنى
أتمنى لو علمتني الليالي
باطل الامر قبل أن أتمنى

فهنا نجد الشاعر يستخدم كلمة « أتمنى في ثلاثة أبيات ست مرات ، وواضح في هذا الاستخدام ركاكة التكرار غير الجميل ، كما ان الصياغة النثرية الضعيفة تسري في الابيات مسرى الداء الوبيل في الجسم المريض . يضاف الى كل ذلك ما في الابيات من تناقض نفسي واضح ، ففي البيت الاول يتمنى الشاعر ألا يتمنى ، وفي البيت الثاني يتمنى لو عرف كيف يختار أمنياته وكيف يتمنى بصورة جيدة وسليمة .

على اننا نجد هذه الصياغة النثرية التي تصدمنا بوضوح في شعر العقاد حتى في قصائده الجيدة ، ففي رثائه المؤثر لكلبه « بيجو » ، وهو الرثاء الذي اشرنا اليه منذ قليل والذي استطاع فيه الشاعر ان يبني علاقة انسانية بسيطة وحميمة مع هذا الكلب ... في هذا الرثاء يقول العقاد :

خطوته ... يا برحها من ألم
يخدش بابي ، وهو ذاوي القدم
مستنجدا بي . ويح ذاك البكم
بنظرة أنطق من كل فم
يا طول ما ينظر !.. هذا فظيع

ففي هذا المقطع نجد عبارة دخيلة لا ضرورة لها من الناحية الفنية هي « ويح ذاك البكم » بالاضافة الى ظلها الثقيل وما فيها من نثرية وركاكة . ثم تجيء عبارة « ... هذا فظيع » التي نقرأها في آخر هذا المقطع... انها ليست من الشعر في شيء ، بل هي عبارة نثرية مستهلكة متكررة خالية من أي ايحاء شعري .

وفي هذه القصيدة أيضا يقول العقاد :

يا واهب الود بمحض السخاء
يكذب من قال : طعام وماء
لو صح هذا ما محضت الوفاء
لغائب عنك وطفل رضيع

فقول العقاد « لو صح هذا ... » هو تعبير نثري لا شعر فيه ، وكثيرا ما يستخدم العقاد مثل هذه التعبيرات التي تنتقل عادة من مقالاته الصحفية الى قصائده ، والتي تدل على عدم تمكنه من لغة شعرية راقية جميلة .

وهذه النثرية في شعر العقاد تضاف الى النزعة العقلية فيه فتضعفه وتجعل منه شعرا مجردا من عناصر الجمال التعبيري ، فكأنه أغصان شجرة جرداء في الخريف ، ليس فيها سوى بقايا من أوراق صفراء جافة لا توحي بجمال الطبيعة وانما تكشف عن فقرها وضعفها وجانبها القبيح .

ان النثرية وضعف الظلال والايحاءات وخشونة الصياغة في لغة العقاد هي كلها ظواهر واضحة في شعره ، وبقدر ما نجد الكلمات تطاوع العقاد في نثره كما قد لا تطاوع اي كاتب آخر ، فاننا نجد هذه الكلمات لا تطاوعه في شعره ، فدائما نجد في هذا الشعر بعض الكلمات الزائدة ، كما نجد كلمات أخرى في غير موضعها ... وهذا كان الصياغة الشعرية عند العقاد في عمومها فلقة ومقلقة في نفس الوقت وهي صياغة نثرية جافة . والغريب ان نثر العقاد زاخر باللمحات الشعرية التي لا نجد مثيلا لها في شعره ... ان في نثر العقاد من الشعر اكثر بكثير مما في شعره ، وهذه حقيقة نلمسها من اللحظات الاولى لمطالعة أدب العقاد ، بل اننا نستطيع ان نحسها من مقدمات قصائد العقاد ومقدمات دواوينه ، فهذه المقدمات دائما أجمل وارقى في صياغتها وتأثيرها على العقل والوجدان من قصائده .

بقيت نقطتان أساسيتان حول شعر العقاد ، وقد حاول العقاد ان يثبت من خلال هاتين النقطتين اتجاهه الجديد في الشعر العربي المعاصر .

أما النقطة الاولى فهي اتجاه العقاد الى التعبير عن الحياة اليومية في شعره . وقد أفرد العقاد ديوانا كاملا للتعبير عن مظاهر الحياة اليومية المعاصرة ، وهذا الديوان هو « عابر سبيل » . وقدم العقاد لهذا الديوان بمقدمة عميقة ومقنعة ، ولكن العقاد ، كالعادة ، يقدم فكرا نظريا ممتازا عن الشعر ، بينما يقدم في قصائده تطبيقا شعريا ضعيفا لهذه الافكار . ولو جمعنا مقدمات العقاد لدواوينه وقصائده المختلفة ، لوجدناها في جملتها تكون كتابا ممتازا وفريدا في النقد العربي عن « الشعر » ، ولكن الافكار التي يقدمها العقاد في هذه المقدمات لا تجد الا تطبيقا خارجيا لا روح فيه وذلك عندما ينتقل من مفكر نظري في الشعر الى شاعر يعبر عن نفسه وأحاسيسه وتجاربه المختلفة . يقول العقاد في مقدمته النظرية الممتازة لديوانه « عابر سبيل » :

« ان احساسنا بشيء من الاشياء هو الذي يخلق فيه اللذة ويبعث فيه الروح ، ويجعله معنى شعريا تهتز له النفس ، او معنى

زريا تصرف عنه الانظار وتعرض عنه الاسماع ، وكل شيء فيه شعر اذا كانت فينا حياة أو كان فينا نحوه شعور . فليست الرياض وحدها ولا البحار ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال ، وانما النفس التي لا تستخرج الشعر من هذه الموضوعات كالجسم الذي لا يستخرج الغذاء الا من الطعام المتخير المستحضر ، أو كالمعدم الذي يظن ان المترفين لا يأكلون الا العسل والباقلاء . كل ما نخلع عليه من احساسنا ونفيض عليه من خيالنا ، ونتخيله بوعينا ونبث فيه من هواجسنا واحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر ، لانه حياة وموضوع للحياة ، وان التصور هو خير معوان للاحساس وشاحذ للرغبة او للنفور ، فان الام التي تنظر الى طفلها الوليد ثم تقضي عشرين سنة وهي تتصوره « عريسا » سعيدا ، لا تفرح به يوم عرسه كما تفرح بتصوره والرجاء في بقائه طوال تلك السنين ، فانما من نسج التصوير نخلق الحلل النفسية التي نضفيها على آمال الغيب ومشاهد العيان . فلنجمع لدينا الرغبة والتصور نجمع لدينا زادا من الشعر لا ينفد ، وموضوعات للشعر تشتمل على كل ما تراه العيون وتمسه الاذواق . ولنتوجه بالحواس الراغبة الى ما نشاء ، نستمرىء الشعور والتعبير عنه ، كما نستمرىء المحاسن المشهورة والمناظر المأثورة ، لان المحاسن نفسها لن تهزنا اليها ولن تحل عقدة من السنتنا حتى يزينها لنا الحس الناشط والخيال المتوفز » ..

ثم يقول العقاد بعد ذلك :

« .. ان أجمل وجه ليمر بنا في ساعة الجمود والوجوم كما تمر طلعة الخادم العجوز التي نراها صباح مساء ، وعلى هذا الوجه يرى « عابر السبيل » شعرا في كل مكان اذا أراد ، يراه في البيت الذي يسكنه ، وفي الطريق الذي يعبره كل يوم ، وفي الدكاكين المعروضة ، وفي السيارة التي تحسب من أدوات المعيشة اليومية ، ولا تحسب من دواعي الفن والتخيل ، لانها كلها تمتزج بالحياة الانسانية ، وكل ما يمتزج بالحياة الانسانية فهو ممتزج بالشعور واجد عند التعبير عنه صدى مجيبا في خواطر الناس . وعندي اننا في حاجة ـ نحن ابناء العصر الحاضر ـ الى هذا التوجيه لانقاذ النفس الانسانية ، لا لانقاذ الملكة الفنية وحدها ، فاننا اذا تعودنا العناية بالاشياء ، وجدنا فيها ما يستحق العناية وينفض عن النفس تلك التفاهة التي غلبت على الحياة وعلى الشعر والفن في هذه الايام الحديثة » .

هذا هو ما يقوله العقاد في مقدمته ، ومنطقه هنا هو منطق الناقد الذكي الذي يفهم حقيقة الشعر ومنابعه الاصيلة ، كما انه هنا يمثل وجهة نظر جديدة غير تقليدية في فهم الشعر ، فالشعر التقليدي لم يكن يؤمن بتلك القيم والمبادىء التي تجعل كل شيء في الحياة مادة صالحة للشعر ما دامت هذه المادة قد امتزجت بالاحساس والشعور والتجربة .

والنتيجة التي خرج بها العقاد بعد هذه المقدمة في ديوانه « عابر سبيل » هي ان الحياة اليومية بكل مظاهرها صالحة للشعر ، مهما كانت هذه المظاهر بسيطة وعادية . والنظرة النقدية للعقاد هي نظرة انسانية عميقة وهي في نفس الوقت نظرة فنية صحيحة . ولكن المشكلة هي مشكلة التطبيق الشعري لهذه النظرية النقدية . لقد اندفع العقاد في ديوانه « عابر سبيل » لكتابة الشعر عن كل شيء يصادفه ، فكتب قصيدة عن « كواء الشياب ليلة الاحد » ، وكتب قصيدة اخرى عن « سلع الدكاكين في يوم البطالة » ، وهناك قصائد اخرى عديدة في هذا الديوان منها « قطار عابر » ، وقصيدة عن نداء الباعة قبل انصرافهم في الساعة الثامنة وعنوانها « بابل الساعة الثامنة » ، وقصيدة اخرى عن « المتسول » ، وقصيدة اخرى عن « الطريق في الصباح » ، وقصيدة بعنوان « بيت يتكلم » .

وعندما نقرأ معظم هذه القصائد نجد انها خالية من التجربة الشعرية الحقيقية ، فالشرط الذي وضعه العقاد لنجاح التعبير الشعري غير متوفر في هذه القصائد ... هذا الشرط هو « امتزاج الموضوع بالشعور والتجربة الانسانية » ... فهذه القصائد في معظمها قد صدرت عن تفكير عقلي واع ، فقد « قرر » العقاد ان يكتب شعرا عن هذه الموضوعات المتصلة بالحياة طلبا للتجديد الشعري ، وتحقيقا لفكرته النقدية التي تقول بأن كل موضوع صالح للشعر اذا امتزج بالنفس والشعور . ولكن العقاد نسي تماما قضية « الامتزاج بالنفس والشعور » رغم انها شرط أساسي لا غنى عنه اذا اردنا ان نصل الى شعر حقيقي له قيمة وتأثير .

وقد اهمل العقاد من ناحية اخرى تلك الحقيقة التي تؤكد ان الفن « اختيار » من بين موضوعات الحياة المختلفة ... اختيار للموضوع الذي يثير شيئا في نفس الفنان ، أو الذي يرتبط بتجربة خاصة ، أو الذي يناسب لحظة من لحظاته النفسية التي يرى فيها رؤيا شعرية ... أما ان نضع مبدأ نقول فيه « ان كل شيء في الحياة صالح للشعر » ثم يأخذ الشاعر في كتابة الشعر حول كل موضوع واي موضوع ، فذلك موقف خاطىء لا يمكن ان ينبع منه شعر حقيقي .

ولناخذ نموذجا محددا من شعر العقاد هو قصيدته « بيت يتكلم » ... اننا نحس في هذه القصيدة ان الشاعر اختار بيتا .. أي بيت.. وان هذا البيت أخذ يستعرض السكان الذين نزلوا به ثم رحلوا عنه واحدا بعد الآخر ... ان « البيت » لا يرتبط بذكرى معينة في وجدان العقاد ، ولا يرتبط بتجربة انسانية خاصة معه ... بل انه بيت عام يشبه جميع البيوت ، وكل ما قاله العقاد في هذا البيت ينطبق على اي بيت آخر ... ومن هنا نجد ان العقاد قد وضع فكرة ذهنية ثم اخذ في صياغتها شعرا بعد ذلك ، أي ان الفكرة سابقة تماما على الانفعال ، بل ان الانفعال لا وجود له هنا ... وهذا هو بالضبط ما يسمى في الفن الشعري باسم « الصنعة » التي تعتمد على التكلف لا على الاحساس السليم والانفعال الصادق . يقول العقاد في مقدمته النثرية :

« كل بيت من البيوت التي تعاقب عليها السكان لو ألقيت عليه طلسم الخيال وامرته بالكلام فتكلم لانطلقت منه اسرار واشباح يزدحم بها فضاء المكان ، ولسمعت عجبا لا تسمع الآذان اعجب منه ، وليس الذي يتحدث به « البيت » في القصيدة التالية الا قليلا من كثير ».

ثم يقول العقاد بعد ذلك في بداية قصيدته :

جميع الناس سكاني ... فهل تدرون عنواني
وما للناس من سر ... عدا آذان حيطاني
حديثي عجب فيه ... خفايا الانس والجان
فكم قضيت ايامي ... بأفراح وأحزان
وكم آويت من بر ... وكم آويت من جان
فان ارضاكم سري ... فهاكم بعض اعلاني

ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف نماذج من الناس الذين سكنوا البيت ... يقول عن الساكن الاول :

بني الانسان لن أخذ ... ل في دهري بانسان
ألم اعرفكم طرا ... فلم اسعد بعرفاني !؟
أتاني أول السكن ... وما استوفيت بنياني
وما ارهفت آذانا ... ولم آنس بقطان
واصغيت على مهل ... فطاشت كل آذاني
هما زوجان او شيطا ... نة لاذت بشيطان
وقد شاعا وفيين ... بتقدير وحسبان
وراحا هكذا يحكو ... ن ـ في روح وريحان

وما ابصرت من هذا ولا من تلك في آن
سوى خوانة خر قاء تفري عرض خوان
اذا ما ضحكا يوما على غش وبهتان
حسدت البيد والاطلا ل في غيظي وكتماني
واشفقت من النة مة أن تهتز أركاني

وتمضي القصيدة على هذا النمط من الصياغة النثرية التي تحول مجموعة من الافكار في ذهن الشاعر الى « كلام منظوم » ... واذا حاولنا ان نخرج من هذه القصيدة بأي « علاقة نفسية » بين البيت والشاعر فاننا لا نستطيع ان نجد هذه العلاقة على الاطلاق ، ونحاول ان نكتشف من خلال هذه القصيدة هل هناك ذكريات تربط بين الشاعر وبين هذا البيت فلا نجد ، فكل ما في القصيدة هو مجموعة من الافكار والايحاءات الذهنية التي لا ترتبط بالوجدان ، كما ان « البيت » هو بيت عام مثل جميع البيوت ، والناس الذين تعرض لهم القصيدة هم بشر لهم ملامح عامة غير محددة ، فهم « زوجة خائنة » و « زوج خائن » و « عالم » و « فنان » وهكذا ... ملامح تجريدية لا ترتبط مع الشاعر الانسانية باي رباط حقيقي .

ولو اننا وضعنا قصيدة العقاد موضع المقارنة مع قصيدة اخرى مشابهة لها في الموضوع هي قصيدة « العودة » لابراهيم ناجي لوجدنا الفرق الواضح بين الشعر القائم على الصنعة والتفكير العقلي المجرد والشعر الحقيقي القائم على الاحساس العميق والتجربة الانسانية الحية الصادقة . ان « بيت » العقاد لا علاقة له بنفس الشاعر ، ولا علاقة له بأي تجربة انسانية خاصة للشاعر ، أو بأي احساس يرتبط بهذا البيت . وكل خواطر العقاد عن البيت قد صدرت عن خيال فكري خالص بعيدا تماما عن أي شعور أو انفعال ، وهنا يفترق « بيت العقاد » عن « بيت ناجي » .

يقول ناجي في مقدمة قصيدته : « عاد الشاعر الى دار احباب له فوجدها قد تغيرت حالها » ... وحول هذه التجربة كتب قصيدته . فبيت ناجي يرتبط معه بتجربة نفسية خاصة ، وله في قلبه ذكريات عديدة مليئة بالحياة مرتبطة بأعمق الانفعالات ... ومن هنا اصبح بيت ناجي من البداية له معنى خاص ، لقد اختاره الشاعر من بين جميع البيوت اختيارا فنيا خاصا ، لان هذا البيت له مكان في نفسه وفي تجربته الانسانية . يقول ناجي في قصيدته :

هذه الكعبة كنا طائفيها
والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها
كيف بالله رجعنا غرباء
دار احلامي وحبي لقيتنا
في جمود مثلما تلقى الجديد
انكرتنا وهي كانت ان رأتنا
بضحك النور الينا من بعيد

في هذه الابيات التي نقراها في بداية القصيدة نحس بعلاقة نفسية حميمة بين الشاعر وبين هذا البيت الذي يتحدث عنه ، ونحس بتجربة شعورية محددة ، فقد كانت هذه الدار مصدرا لهواه وسعادته بالامس وهي الآن خاوية خالية لا يرى فيها الشاعر الا ما في نفسه من ذكريات وأشجان ... ومن خلال هذا كله يعبر الشاعر تعبيرا فنيا راقيا عن شتى المشاعر والانفعالات التي يتضمنها هذا الموقف من حزن واسى ودهشة واحساس بالالم والحرمان ... ان كل هذه الالحان العميقة تعزف في داخل القصيدة فتربطنا برباط نفسي وثيق مع هذا البيت وتجعل من هذه القصيدة عملا فنيا راقيا شديد التاثير على الوجدان والقلب .

يقول ناجي معبرا عن دهشته المريرة للصورة التي اصبح عليها هذا البيت ، وللصورة التي أصبح عليها الشاعر :

آه مما صنع الدهر بنا
اوهذا الطلل العابس انتا ؟
والخيال المطرق الرأس انا ؟
شد ما بتنا على الضنك وبتا ؟
أين ناديك وأين السمر
أين اهلوك بساطا وندامى
كلما أرسلت عيني تنظر
وثب الدمع الى عيني وغاما

ان الشاعر هنا يصور لنا حالته النفسية الصادقة عندما رأى هذا البيت ، فاصابته الدهشة وأصابه احساس عميق بالحزن لما صار عليه هذا البيت ولما صار عليه الشاعر نفسه ... ثم ينتقل من هذا التصوير الصادق الحزين الى تقديم رؤيته الشعرية للبيت في وضعه الراهن ، فيقدم لنا صورة حية نابضة هي من أرقى صور الشعر العربي بل والشعر الانساني كله ... ان البيت الحبيب ليس خاليا في « رؤية الشاعر » ولكنه مليء ... مليء بماذا ؟

موطن الحسن ثوى فيه السام
وسرت انفاسه في جوه
وانساخ الليل فيه وجثم
وجرت اشباحه في بهوه
والبلى ابصرته رأي العيان
ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! يا ويحك تبدو في مكان
كل شيء فيه حي لا يموت
كل شيء من سرور وحزن
والليالي من بهيج وشجي
وانا اسمع اقدام الزمن
وخطى الوحدة فوق الدرج

اننا امام مجموعة من الصور الجزئية الحية الرائعة تؤدي بنا في النهاية الى الاحساس العام الذي يملأ القصيدة وهو الاحساس بالحزن والغرابة ، والاحساس بالمقارنة بين الماضي السعيد والحاضر المؤلم . .وما اجمل هذه الصور الجزئية التي ترسم لوحة الحزن الشاملة ، « فالسام » يقيم في « موطن الحسن » وتسري انفاس السام في جو هذا الموطن ، والليل يجثم في هذا البيت ، تجري اشباح الليل في بهوه .. الشاعر يرى « البلى » رأي العين ..واين يراه ؟ انه يراه في مكان كل شيء فيه حي لا يموت .. لانه مكان الحب .. مكان اللحظة النفسية التي لا ينساها الشاعر ابدا .والشاعر يسمع « اقدام الزمن » ويسمع « خطى الوحدة » فوق الدرج .صور رائعة حية . وعالم صادق بالغ الشفافية بحيث استطاع الشاعر ان يحس انفاس السام ، ويسمع اقدام الزمن وخطى الوحدة ،ويرى البلى بعينه .. وتلك هي الرؤية الشعرية الرفيعة الصادقة ، التي تمزج بين الواقع الخارجي وبين نفس الشاعر مزجا راقيا، ثم تعبر عن تجربة نفسية ، وموقف ،واحساس خاص .

هذا هو « بيت ناجي » ، انه بيت له صورته الخاصة الواضحة، وله ملامحه وله تأثيره العميق على النفس .. وهو بيت حي اضفى عليه الشاعر ملامح انسانية جعلت كل شيء فيه ينبض ويتحرك .. اما بيت العقاد فهو بيت من كرتون او من ورق ، وموقف العقاد هو موقف مادي عملي مباشر يحصي الذين سكنوا البيت وماذا فعلوا به ... انه بيت لا علاقة له بنفس الشاعر ، وهو بيت ككل البيوت ... وهو في اخر الامر لا علاقة له بنفوسنا ومشاعرنا .

فالمبدأ الذي وضعه العقاد عن صلاحية الحياة اليومية للشعر مبدأ سليم ، ولكنه طبق هذا المبدأ في شعره تطبيقا غير سليم، ففي النموذج السابق ، نموذج البيت الذي يتكلم نجد ان العقاد لم ينتبه الى واجبه الفني في ان يختار من بين موضوعات الحياة اليومية ما يرتبط بنفسه وتجاربه الشعورية . فالموضوع الشعري لا بد أن يرتبط بالنفس حتى يمكن ان يكون موضوعا شعريا خصبا وحتى لا يكون شيئا من اشياء الحياة الثانوية البسيطة التي لا شأن لها .

وكما فقد العقاد في شعر الحياة اليومية الذي قدمه في ديوان « عابر سبيل » عنصر « الاختيار » الذي بدونه لا يكون فن ولا يكون شعر ، فانه فقد في هذا الشعر ايضا عنصر « التجسيد » ، ان الحياة اليومية تعني الحياة بمعناها الواقعي الجزئي المباشر ، ولا تعني الحياة بمعناها الفلسفي المجرد من الوقائع والاحداث ، واختيار الموضوع من الحياة اليومية ينبغي لذلك ان يبتعد عن المعاني المجردة، وان يجعل موضوعات الحياة اليومية جزءا من تكوين القصيدة للدلالة على موقف محدد او معنى خاص ، ولكن العقاد في ديوان عابر سبيل عكس القضية تماما ، فهو عندما يتحدث عن « كواء الثياب ليلة الاحد » فانه يترك هذا الموضوع الواقعي المباشر ليتحدث عن فلسفة الحب والجمال وليدعو « كواء الثياب » الى الارتقاء في تفكيره الى ما هو اعلى واجمل :

يا اخا الفن لا	تدعها بالثياب
وارق منها الى	ما احتوت من شباب
وجمال حلا	وحياة عجاب
وتفلسف على	ما احتوت من رقون

« والرقون هي : الخضاب » .

تلك كلها معان تجريدية عامة لا تؤثر في النفس ولا تقترب من الوجدان .. والشاعرية الحقيقية هي التي تعطى لوقائع الحياة اليومية في القصيدة نوعا من التجسيد في موقف معين او في تجربة خاصة .. هنا ترتفع وقائع الحياة اليومية لتصبح حقا مصدرا للشعر الجميل . ولنقف امام بعض النماذج من الشعر الجديد، استفاد فيها الشعراء فائدة واضحة من دعوة العقاد الى الالتفات للحياة اليومية في الشعر ، ولكنهم وصلوا الى المنابع الحقيقية للشعر في الحياة اليومية عندما استطاعوا ان يصلوا الى «تجسيد» الحياة اليومية في مواقف معينة وتجارب محددة دون ان يتركوها افكارا مجردة نظرية مبعثرة بعيدة تمام البعد عن القلب والوجدان .

في قصيدة للشاعر احمد عبدالمعطي حجازي يصور لنا الشاعر ما يعانيه انسان ريفي بسيط جاء الى المدينة ، والقصيدة اسمها « الطريق الى السيدة » .. يقول حجازي في بداية قصيدته :

- ياعم
من أين الطريق ؟
أين طريق السيدة ؟
- أيمن قليلا ، ثم ايسر يا بني
قال .. ولم ينظر الي
وسرت يا ليل المدينة
أرفرق الاه الحزينة
أجر ساقي المجهدة
للسيدة
بلا نقود ، جائع .. حتى العياء
بلا رفيق
كانني طفل رمته خاطئة
فلم يعره العابرون في الطريق
حتى الرثاء

ففي بداية القصيدة نجد انفسنا امام منظر من مناظر الحياة اليومية العادية :

انسان غريب يسأل انسانا اخر عن « طريق السيدة » فيدله على الطريق ، ولكن الشاعر هنا لا يكتفي بهذا المنظر ، وانما يسارع فيضعه في اطار صورة كاملة يجسد لنا احساس الانسان بالغربة والضياع في المدينة ، فمن خلال « رماد » الحياة اليومية ،وصورها العادية المباشرة يقدم لنا الشاعر تجسيدا لموقف معين وتجربة نفسية خاصة ، ومن هنا كانت صورة الحياة اليومية في القصيدة صورة جميلة مؤثرة ، ولم تكن مجرد صنعة ومهارة في استخراج الشعر من الحياة اليومية حيث تبدو الحياة اليومية خالية من هذا الشعر .

والشاعر في هذه القصيدة يستخدم صور الحياة اليومية ويجسد من خلالها المعنى العام للقصيدة والتجربة النفسية الواحدة ، وهذه التجربة هي تجربة « الاحساس بالغربة والضياع في المدينة الكبيرة ». وهي تجربة واضحة ملموسة استطاع الشاعر من خلالها ان ينقل الينا ما يحس به وما يعانيه .

وهناك صورة اخرى من صور الحياة اليومية نلتقي بها في قصيدة قديمة معروفة للشاعر صلاح عبدالصبور هي قصيدة « الحزن » وقد اثارت هذه القصيدة مناقشات واسعة عند ظهورها .. يقول الشاعر:

يا صاحبي اني حزين
طلع الصباح ، فما ابتسمت ولم ينر وجهي الصباح
وخرجت من جوف المدينة اطلب الرزق المتاح
وغمست في ماء القناعة خبز ايامي الكفاف
ورجعت بعد الظهر في جيبي قروش
فشربت شايا في الطريق
ورتقت نعلي
ولعبت بالنرد الموزع بين كفي والصديق
وضحكت من اسطورة حمقاء رددها الصديق
ودموع شحاذ صفيق
وأتى المساء
في غرفتي دلف الماء
والحزن يولد في المساء لانه حزن ضرير
حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم

هنا نحس ان الشاعر قد استخدم صور الحياة اليومية في اطار واضح من التجربة النفسية ليجسد لنا الشعور بالضياع والحزن .. فالجلوس على المقهى وشرب الشاي في الطريق واللعب بالنرد ، كل هذه الصور ترسم لنا خطوطا في لوحة كبيرة هي لوحة التعبير عن الحزن والضجر والهروب من شيء مؤلم والضيق بالحياة .ولكن الشاعر لم يفصل صور الحياة اليومية عن تجربته النفسية المحددة الواضحة ، اما عند العقاد فانه يجرد صور الحياة اليومية من اي ارتباط نفسي او تجربة شعورية ، فتبدو صور الحياة اليومية عنده تعبيرا عن افكار نظرية عامة مجردة وباردة .

ولنقف امام نموذج اخر للعقاد في قصيدته « قطار عابر » .. يقول العقاد في هذه القصيدة وهي من ديوان « عابر سبيل » ايضا:

نامت القرية وانساب القطار	هو في موعده بين الديار
يعرف الساعة لا يخطئها	هكذا الجنة في وقت المزار
رب سار بات في اركانه	ود لو يسبق سباق البخار
يحسب الهم الذي هم به	دارت الارض عليه حيث دار
ود لو يسأل هاتيك القرى	ما لقوم لم يسيروا حيث سار

وهو والركب الذي من حوله — في اشتياق وانطلاق وانتظار
عند من يدلج في تلك القرى — صور منسية في اسم القطار
كل ما يبقى له من ذكره — ضجة من حولها ثار الغبار

هكذا يقدم العقاد لنا صورة اخرى من صور الحياة اليومية، وهي صورة القطار الذي يمر بالقرية ، واللوحة التي يرسمها لهذا القطار هي لوحة تتكون من خطوط فكرية باردة وجامدة ، وكلها انتفاضات ذهنية باردة ، فالقطار يأتي « في موعده بين الديار » وهو يعرف « الساعة لا يخطئها » كأنه « جني » يأتي للزيارة في ساعة معينة ... ان يشبه القطار «بالجني» في دقته وانتظامه ، وهو تشبيه عقلي مفتعل لا يثير احساسا ولا شعورا ولا يهز الوجدان في شيء على الاطلاق وكذلك بقية الصور التي تملأ القصيدة .. انها صور عقلية مفتعلة وباردة .

نستطيع بعد ذلك ان نقارن قصيدة العقاد عن القطار بقصيدة للشاعرة العراقية نازك الملائكة عن نفس الموضوع ، وهذه القصيدة عنوانها « سر القطار » وهي منشورة في ديوان « شظايا ورماد ».. في هذه القصيدة نحس منذ اللحظة الاولى بان الشاعرة تعبر عن تجربة نفسية خاصة ، هذه التجربة هي تجربة حبيبة تنتظر حبيبها الذي سوف يأتي به هذا القطار ، وتحرص الشاعرة في تصوير التجربة الشعرية على رسم مجموعة من الصور الحية وتبتعد عن الافكار الباردة الجامدة ، وتعتمد الشاعرة على عنصرين اساسيين في بناء هذه القصيدة : العنصر الاول هو التجربة النفسية الواضحة المحددة التي تحرك الوجدان والشعور وهذه التجربة هي انتظار الحبيب القادم في هذا القطار والعنصر الثاني هو رسم الصور الانسانية بدلا من التجريد الفكري البارد ، وهذان العنصران معدومان تماما في قصيدة العقاد .

والعنصر الاول في القصيدة ، عنصر التجربة النفسية والانسانية التي تربط بين الشاعرة وبين القطار يتمثل لنا في هذا المقطع من مقاطع القصيدة ، وهو مقطع يحمل تعبيرا صادقا عن اللهفة والشوق والانتظار :

وتمر أقدام الخفير
ويطل وجه عابس خلف الزجاج
وجه الخفير
ويهز في يده السراج
فيرى الوجوه المتعبة
والنائمين وهم جلوس في القطار
والاعين المترقبة
في كل جفن صرخة باسم النهار
وتضيع اقدام الخفير الساهد
خلف الظلام الراكد
مر القطار وضاع في قلب القفار
وبقيت وحدي اسأل الليل الشرود
عن شاعري ومتى يعود ؟
ومتى يجيء به القطار ؟
أتراه مر به الخفير
ورآه لم يعبأ به .. كالاخرين
ومضى يسير
هو والسراج ويفحصان الراكبين
وأنا هنا ما زلت ارقب في انتظار
وأود لو جاء القطار

هنا علاقة نفسية وانسانية بين الشاعرة والقطار ،وهذه العلاقة النفسية هي التي تخلق المنبع الحقيقي للشعر لانها ترتبط بعواطف انسانية محددة هي الانتظار واللهفة والقلق والشوق الى المحبوب الغائب ، وهذه المشاعر كلها مفقودة في قصيدة العقاد التي قامت على الوصف التجريدي العقلي المباشر للقطار ، ثم توليد الافكار الذهنية الباردة حول صورة القطار .

اما العنصر الثاني في قصيدة « نازك » وهو عنصر الصور الانسانية فنحن نجده في المقطع السابق في صورة « الخفير » الذي يتفحص وجوه المسافرين دون ان يعبأ بأن بين هذه الوجوه « حبيب » تنتظره حبيبته .. ولكن الصور الانسانية في القصيدة لا تقف عند حدود صورة « الخفير » بل تتعداه الى المقاطع المختلفة في القصيدة كلها ، مما يجعل لهذه القصيدة تأثيرا وجدانيا عميقا على النفس .. ونحن نلتقي بهذه الصور الانسانية منذ البداية في هذه القصيدة :

. . . . .
الليل ممتد السكون على المدى
لا شيء يقطعه سوى صوت بليد
لحمامة حيرى وكلب ينبح النجم البعيد
والساعة البلهاء تلتهم الغدا
وهناك في بعض الجهات
مر القطار
عجلاته غزلت رجاء ،بت انتظر النهار
من اجله .. مر القطار
. . . . .
ويلوح ضوء محطة عبر المساء
اذ ذاك ينشد القطار المجهد
... وفتى هنالك في انطواء
يأبى الرقاد ولم يزل يتنهد
سهران يرتقب النجوم
في مقلتيه برودة ، خط الوجوم
اطرافها .. في وجهه لون غريب
ألقت عليه حرارة الاحلام آثار احمرار

وهكذا تمضي قصيدة نازك الملائكة تحرك نفوسنا بصورها الانسانية الحية ، هذه الصور التي تجعل من القطار عالما من المشاعر والتجارب النفسية ، ونحن من خلال هذا القطار نحس بالليل ، والوحدة ،والشوق ، ونحس بكثير من المشاعر النابضة التي تتحرك في نفوسنا مع حركة القصيدة .

وهذا كله شيء لا نجده في قصيدة العقاد التي تواجهنا بمجموعة من الافكار ولا شيء غير ذلك .

وهكذا تبدو صور الحياة اليومية في شعر العقاد فكرة صحيحة وجيدة ، ولكنها عند التطبيق تظل محصورة في نطاق الفكر النظري ... انه لم يستطع في شعره ان يضفي حرارة الوجدان والشعور على صور الحياة اليومية ، ولم يخضع هذه الصور للاختيار الفني السليم ، بحيث لا يكتب الا عما يرتبط بتجربته النفسية والانسانية الخاصة ، ولم يستطع ان يخرج بصور الحياة اليومية من نطاق الافكار التجريدية الى مجال الصور الانسانية الحية التي تستطيع وحدها ان تؤثر في النفس وتثير الوجدان وتفجر ينابيع الشعر.واذا كان العقاد يعتبر في ادبنا العربي المعاصر من اكبر الرواد الذين ابرزوا اهمية الحياة اليومية كمنبع جديد من منابع الشعر،فانه لم يستطع ان يستغل هذا المنبع بعد ان اكتشفه واشار اليه ولم يستطع ان يدرك ما في هذا المنبع من كنوز فنية وشعورية .

تبقى التجربة الثانية للعقاد بعد « اعاصير مغرب » وما فيه من شعر عن « الحياة اليومية » ،هذه التجربة هي تجربة ديوانه « هدية الكروان » وهي أسبق من تجربة عابر سبيل .. فقد صدر عابر سبيل سنة ١٩٣٧ بينما صدر « هدية الكروان » سنة ١٩٢٣. وفي هدية الكروان استطاع العقاد ان يسجل في المقدمة فكرته الشعرية التي دفعته الى كتابة قصائده عن « الكروان » في هذا الديوان ، فهو يتحدث عن « الكروان » فيقول انه « يطلع عليك بهتافه من هنا وهناك ، وعن اليمين وعن الشمال وعلى الارض وفوق الذرى ، فيخيل اليك انك تسمع الى روح هائم لا يقيده المكان ولا يعرف المسافة ، اطلقوه في الدنيا على حين غرة فسحرته فتنة الدنيا وخلبته محاسن الليل ، فهو لا يعرف القرار ولا يصبر في مطار ، فانت تتلقى من صوت هذا الطائر الاليف النافر عالما من معان واشجان يتجاوب فيها تقديس المصلي القانت وحدب الحارس الامين وروح الطفولة ، ومناجاة الخطر المقبل ، وهيام الروح المنهوم بالحياة والجمال : عالم لا نظير له فيما نسمع من غناء الطير بهذه البلاد » .

ثم يتحدث العقاد بعد ذلك عن عدم التفات المصريين الى صوت الكروان .. ويتعجب انك لا تقرأ فيما ينظمه المصريون « الا مناجاة البلابل واشباهها ، على قلة ما تسمع في هذه الاجواء . فكأنما العامة عندنا أصدق شعورا من الشعراء ، لانهم يلقبون المغني بالكروان ولا يلقبونه بالبلبل ويصدرون عن شعور صادق ويتحدثون بما يعرفون . وليس عن تعصب منا للوطن نؤثر الكروان على البلبل وما اليه لان التعصب الوطني على هذه الصورة حماقة لا معنى لها في الشعر والشعور ، ولكننا نؤثره لان الاعجاب به صحيح يصدر عن الطبع الصادق ، اما الاعجاب بالطير الذي لا نسمعه فذاك محاكاة منقولة تصدر من الورق البالي وتؤذي النفس كما يؤذيها كل تصنع لا حقيقة فيه ، واخف الوقع له في نفوسنا ان يضحكها ويغريها بالسخرية » .

هذا هو ما يقوله العقاد في مقدمته ، وكالعادة نجد ان العقاد يلمس هنا منبعا حقيقيا رائعا من منابع الشعر ، ويلتفت بحسه النقدي العميق الى ضرورة التجديد عند الشعراء المعاصرين ، بحيث يكون شعرهم تعبيرا عن انفسهم وواقعهم بدلا من ان يكون نوعا من الترديد والتقليد لتجارب لا علاقة لها بحياتهم . وبجانب ما نجده في هذه المقدمة من افكار خصبة فاننا نحس بما فيها من صياغة شعرية جميلة ترتقي بالاسلوب النثري في هذه المقدمة الى مستوى الشعر الجميل المؤثر . على ان العقاد لا يكاد ينتقل من هذه المقدمة الجميلة العميقة الى قصائد الديوان حتى تسيطر عليه عيوبه التي تبرز في شعره وتؤثر على قيمته اشد التاثير . فهو ينظم قصائده بعقله وافكاره ولا يعبر فيها عن انفعال ، او تجربة انسانية حقيقية ، وتتحول القصائد الى مجموعة من الافكار الذهنية الباردة البعيدة كل البعد عن الاحساس والشعور والدفء .. بل ان العقاد ينظم نفس الافكار التي يعبر عنها في مقدمته ، والغريب ان تكون المقدمة اكثر شاعرية من الشعر نفسه.. ففي قصيدة بعنوان « ببغاء » يكرر العقاد نفس افكار المقدمة عن الشعراء الذين يتغنون بالبلابل ولا يتغنون بالكراوين .. في هذه القصيدة يقول العقاد :

ببغاء ترنمت	بمديح البلابل
أين منا بلابل	مسرعات المراحل
في سماوات موطن	ليس منها بآهل
بالكراوين عامر	والقماري حافل
ناج ما أنت سامع	يا أسير الاوائل
في الكراوين غنية	عن نشيد البلابل
والقماري ما لها ؟	اصغ واسمع وسائل
ان تعداك قولها	فالتمس وصف قائل

في هذه الابيات تكرار لنفس معاني المقدمة .. ولكن الابيات جافة باردة خالية من روح الشعر .. انها مجموعة من التانيبات والتعليمات والتنبيهات ، وهي اشبه بالشعر التعليمي الخالي من الشعور والانفعال .

وهذا نموذج من غناء العقاد للكروان :

يا محيي الليل البهيم تهجدا والطير آوية الى الاركان
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعا من نابع في غمرة النسيان
قل يا شبيه النابغين اذا دعوا والجهل يضرب حولهم بجران
كم صيحة لك في الظلام كانها دقات صدر للدجنة حان
هن اللغات ولا لغات سوى التي
رفعت بهن عقيرة الوجدان
ان لم تقيدها الحروف فانها
كالوحي ناطقة بكل لسان
اغنى الكلام عن المقاطع واللغى
بث الحزين وفرحة الجذلان

هذا هو الكروان عند العقاد ... انه لا يرتبط معه باحساس معين، ولا يكشف له بعض الذكريات والتجارب النفسية والانسانية ، ولا يحرك في قلبه انفعالات ومشاعر خاصة ، بل كل ما هنالك انه يثير لديه بعض الافكار الذهنية الباردة ، فالكروان يشبه « نابغا في غمرة النسيان » ، ثم مجموعة اخرى من الخواطر الجافة .. فصيحة الكروان في الظلام كانها دقات صدر ، واللغة التي ينق بها ـ رغم انها بلا حروف ـ هي اللغة الحقيقية لانها لغة الوجدان التي كانها الوحي ، وشاعر الحزن ومشاعر الفرح تغني الكلام عن اي مقاطع او حروف . ان الشاعر هنا لا يحرك في نفوسنا اي احساس ، ولا يقترب من مشاعرنا او يحركها بتجربة انسانية خاصة .

واذا تابعنا نفس منهجنا في المقارنة بين قصائد العقاد وقصائد غيره من الشعراء حتى نرى وجه الضعف والتقصير في شعره فاننا نتذكر هنا كثيرا من الشعراء العرب والشعراء العالميين ، وسوف نكتفي بمقارنة قصيدة العقاد عن « الكروان » وهي القصيدة التي اخترنا منها بعض الابيات بأبيات مشهورة للشاعر العربي القديم « ابي فراس الحمداني » وهي ابياته عن الحمامة ، وقد قالها وهو في الاسر :

اقول وقد ناحت بقربي حمامة :
أيا جارتا ، هل تعلمين بحالي ؟
معاذ الهوى ! ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالي اقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحا لدي ضعيفة
تردد في جسم ، يعذب ، بال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة
ويسكت محزون ، ويندب سال
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة
ولكن دمعي في الحوادث غال

ماذا نسمي هذه الابيات ؟ انها شعر بكل معنى الكلمة .فالشاعر يرتبط مع « الحمامة » برباط انساني عميق ، فيه نوع من الود

والالفة والمناجاة والحوار ، فهو منذ البيت الاول ، يحاول ان يشرك الحمامة معه في حالته النفسية فيسألها ((أيا جارتا ، هل تعلمين بحالي ؟)) ثم يقول لها انه هو . وحده المجروح المحزون فهو البعيد عن احبابه ، وهو صاحب نفس مليئة بالهموم .. ثم ينتقل الى نداء في منتهى الشجن لهذه الحمامة ((تعالي اقاسمك الهموم تعالي)) ثم يصف لنا نفسه بصدق لا غرور فيه ولا ادعاء ، ((فهو صاحب روح ضعيفة وجسم بال)) ثم يتساءل لماذا تشكو الحمامة الطليقة ويسكت وهو مأسور ومحزون ... لقد كان أولى من الحمامة بالدمع ، ولكنه يحاول ان يحافظ على كرامته وكبريائه .

أبيات من الشعر ، تعبر كلها عن تجربة الشاعر النفسية ومحنته الانسانية ، وتجعل الحمامة قريبة الى قلوبنا ، لانها تشترك مع الشاعر في تجربة شعورية صادقة ، استطاع ان ينقلها الينا في تعبير عذب جميل حساس . لقد جعل الشاعر من ((نوح الحمامة)) فرصة للكشف عن نفسه وجرحه ، وجعل من المقارنة بين حاله وحال الحمامة ما يجعلنا نعيش معه في واقعه النفسي ونتأثر به اعمق التأثر .

الفرق بين ((العقاد)) و((ابي فراس)) هو الفرق بين التفكير الذهني البارد عند العقاد في حديثه عن ((الكروان)) والتجربة الانسانية الحية عند ((ابي فراس)) في حديثه عن ((الحمامة)) .. والتجربة الانسانية هي التي تثير الشعور والانفعال وتخلق الشعر الحقيقي ، اما الافكار الذهنية فلا يمكن ان تخلق الا ذلك الشعر الجاف الخالي من العاطفة والذي نجده في معظم قصائد العقاد .

وهكذا نجد ان العقاد يفهم الشعر ويتحدث عنه بوعي وعمق، ولكن شعره مليء بالعيوب التي تجعله محدود القيمة قليل التأثير، وأهم هذه العيوب ان العقاد يكتب الشعر تحت سيطرة افكاره الذهنية المجردة ، فهو يفكر اولا ثم ينظم هذه الافكار في قصائد، وهذه الطريقة في التعبير الشعري تؤدي الى الجفاف والبرودة والبعد عن الاحساس العميق والانفعال الدافيء الحي ، اذ ان الشعر الحقيقي لا يولد ابدا من خلال الافكار الذهنية المجردة بل يولد من قلب التجارب الانسانية التي يعيشها الشاعر بقلبه ووجدانه ، وهو بعد ذلك قادر على ان ينقلها الينا في صورة مليئة بالعاطفة والاحساس الانساني ، ومن الواضح ان العقاد كان رجلا قاسيا على نفسه وعلى مشاعره وعواطفه ، فلم يكن يسمح لنفسه بان يكون على فطرته وطبيعته وهو يكتب الشعر ، بحيث يكشف هذا الشاعر عما يحس به من اضطراب وقلق ، فقد كان العقاد يقاوم في داخله كل النزعات الانسانية الطبيعية باعتبارها مظهرا من مظاهر الضعف الذي لا يسمح به العقاد لنفسه ولا يرتضيه لشخصيته القوية التي تعودت ان تكتم احزانها وترتفع فوق هذه الاحزان .. مثل هذه الشخصية الصلبة التي ترفض الافضاء والاعتراف وتحاول ان تترفع على الضعف الانساني لا يمكن ان تلهم العقاد ولا اي انسان اخر باي نبض حقيقي من نبضات الشعر ، فالشعر اداة من ارقى ادوات القلب الانساني ، وهي اداة قادرة على التعبير الصادق الحقيقي عما يدور في اعماق الانسان من قلق وصراع وحزن وانفعال، والشاعر الحقيقي ينبغي ان يكون مع شعره ((عاري النفس)) اذا صح التعبير ، اما اذا اخفى عن شعره حقيقة ما يعانيه فان الشعر يفر منه ويهرب . وهكذا فعل الشعر مع العقاد ،لان العقاد كان يكتم انفعالاته الحقيقية بل كان يقتلها في كثير من الاحايين لتبقى له شخصيته القوية القادرة على مواجهة العالم ومشاكله بالتحدي والعنف .

على ان تجربة العقاد الشعرية اذا كانت قد فشلت في معظمها وعجزت عن خلق شعر جميل له تأثيره على الوجدان ، فقد افلتمن هذه التجربة الجافة بعض النماذج القليلة التي لا شك في انها تعتبر نماذج شعرية لها قيمتها وتأثيرها على النفس ، وهذه النماذج القليلة ترتبط بمواقف معينة في شعر العقاد وفي نظرته الى الحياة . ويمكننا تحديد هذه المواقف في ثلاث لحظات شعرية .

اللحظة الاولى هي تلك التي يتخلى فيها العقاد عن القيود القاسية التي يفرضها على نفسه وانفعالاته ،حيث يحرص على ان تكون صورته هي صورة الرجل القوي المثالي القادر الذي لا يخطيء ولا يضعف ولا يخاف ، وفي هذه اللحظة يستطيع العقاد ان يترك المجال واسعا لانفعالاته ومشاعره الحقيقية ويستطيع ان يرتد الى بساطة الانسان فيه بل ويستطيع ان يرتد كما يقول الدكتور مندور الى السذاجة ، وفي هذه اللحظة يستطيع العقاد ان يعترف ويبوح ويكشف عما في نفسه من ضعف ، ومن هنا تخفت سيطرة الذهن على شعره ، ويستطيع ان يستقبل الحياة بفطرة خالية من اي تعقيد ، وكما يقول مندور ايضا ((ان شاعرية العقاد هي تلك الشاعرية الساذجة التي استطاعت احيانا ان تفلت من العملاق وكبريائه لتشكو الحياة ، كما شكاها جميع الشعراء ، في لغة مباشرة ساذجة على نحو ما نرى في عدد من قصائده الاخرى . ومن الغريب ان نلاحظ ان هذا العملاق الاعزب شديد الشغف بالاطفال ،رقيق الشعر في حديثه اليهم او عنهم)) .

هذا ما يقوله مندور عن لحظة الفطرة والبساطة والسذاجة التي ينبع منها الشعر القليل الجميل في دواوين العقاد .. اما النفثة التي يشير اليها مندور فهي منشورة في الجزء الثاني من ديوان العقاد بعنوان نفثة ايضا .. وهي قصيدة صادقة مليئة باللوعة واللهفة والاحساس الحار البعيد عن اي اهتزازات ذهنية باردة . يقول العقاد في نفثته :

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا
عذب المدام ولا الانداء ترويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا
معالم الارض في الغمراء تهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا
نيني ولا سمر السمار يلهيني
غصان غصان لا الاوجاع تبليني
ولا الكوارث والاشجان تبكيني
شعري دموعي وما بالشعر من عوض
عن الدموع نفاها جفن محزون
أسوان أسوان لا طب الاساة ولا
سحر الرقاة من اللأواء يشفيني
اصاحب الدهر لا قلب فيسعدني
على الزمان ولا خل فياسوني
يديك فامح ضنى ياموت في كبدي
فلست تمحوه الا حين تمحوني

ففي هذه الابيات شعر حقيقي صادق مليء بالانفعال القوي والشعور الحار وهو شعر يعبر تعبيرا لا افتعال فيه ولا تكلف عن لحظة من لحظات الحزن والاسى وعن احساس مر يسيطر على قلب الشاعر ويضنيه .

اما الطفولة التي تثير عواطف العقاد وتملأ وجدانه بالشعر الحقيقي والانفعال الصادق وتفك اغلال روحه وقيودها وتشده الى البساطة والسذاجة ، وقد سبق ان قدمنا في اول هذه الدراسة نموذجا من شعر العقاد في الطفولة ، وهذا نموذج اخر من النماذج التي اختارها مندور للعقاد، وهي من خير النماذج التي

تكشف عما بقي في العقاد من شاعرية .

له قصيدة بعنوان « رثاء طفلة » يقول فيها :

زهـرة كان وجههـا ... نـور قلبـي وناظري
حملتهـا يـد الـردى ... حمـل من لم يحـاذر
فتوارت ولـم يـزل ... عرفهـا ملء خاطـري
يا ضيـاء تضمنتـ ... ـه بطـون للدياجير
قـد اجنـوك في الثرى ... يا جنيـن الضمائـر
فالزمـي الرمس حين لا ... حلـم فـي عيـن باصر
فاذا اقبـل الدجـى ... وغفـا كـل ساهـر
فاطرقينـا مـع الكرى ... حلمـا غيـر نافـر
وصلي عيشك الـذي ... كـان احـلام سـادر
وامرحـي فـي صدورنا ... واضحكي فـي السرائر
ثـم عودي اذا الصبـاح ... ح تجلـى ، فباكـري
ان صعبا علـى الصفـا ... ر احتبـاس المقـابر

ففي هذا الشعـر الرقيق المؤثر ـ كما يقول مندور بحق ـ « لا نلمح اثرا للعمـلاق وجبروته ، ولكننا نحس روحا شاعريـة لطيفـة في رثاء تلـك الطفلـة التي يدعوهـا الشاعـر الى ان تعـود في الحلم لتمـرح فـي صدره وتضحـك في سريرته ، واخيرا في هذا الاسى الانساني الذي بلـغ الذروة في قـوة الشاعريـة المعبرة حيث يقـرر الشاعـر في بساطـة انسانيـة فذة :

« ان صعبا علـى الصفـا ... ر احتبـاس المقابـر »

امـا اللحظـة الثانيـة التي نلتقي فيها بشعـر جميل صادق للعقاد فهي اللحظـة التي يعيش فيهـا تجربة نفسيـة واضحـة تسيطر علـى روحه ووجدانه وتبتعد به تمامـا عن التعقيدات الذهنيـة المختلفة ، فيبدو امامنـا فنانـا يعبـر عـن شعور انساني واضح وتجربة شعرية نابعة من اعماق قلبه ووجدانه ، ومثل هذه التجربة النفسيـة الصادقة تعطي لقصيدته ، ولاي قصيـدة مـن هذا النوع ، وحدة فنيةوشعورية تسيطـر عليهـا تمامـا ... ولنقرأ قصيدة « الحان والمسجد »للعقاد، وهي قصيدة قصيرة ولكنها قصيدة تتوفـر لهـا كل عنـاصر الشعـر الانساني الصادق الاصيل ، حيث ان الشاعـر يعبر فيهـا عـن تجربة نفسيـة واضحـة محددة وصادقـة ..

يقول العقـاد :

تريدين ان ارضى بك اليوم للهـوى
وارتاد فيـك اللهـو بعـد التعبـد
والقـاك جسمـا مستباحـا وطـالما
لقيتـك جمّ الخـوف جـم التردد
رويـدك انـي لا اراك مليئـة
بلـذة جثمـان ولا طيـب مشهـد
جمالك سـم فـي الضلـوع وعثـرة
تـرد مهـاد الصفـو غيـر ممهـد
اذا لم يكـن بد مـن الحـان والطلى
ففي غير بيت كـان بالامس معبدي

ان تجربة الشاعـر هنا هي تجربة الحب الصادق الذي قاده حبه الى نوع من التقديس لحبيبته ثم كشفت له الايام عمـا في هذه الحبيبة من عبث ولهو وبعد عن الشفافية والطهارة ، وهذه الحبيبة تدعوه الى الكأس والى جسدها الذي اصبح مستباحا بعد أن كان حبيبها مثـالا للطهر والنقاء والجمال ... وهنا تحس نفس الشاعر العاشق باللوعة الحقيقية ... فجمال الحبيبة قد أصبح « سما في الضلـوع » ... والقصيدة مليئـة بالصور الشعرية الرائعة مثل قوله عن لقاء حبيبته، ايام الهوى الصادق « ... وطالما لقيتك جم الخوف جم التردد » ... ثم قوله في هذا البيت الرائع :

اذا لم يكن بد من الحـان والطلـى
ففي غيـر بيت كـان بالامس معبـدى

في هذه القصيدة الصغيرة الكبيرة في نفس الوقت نحس بلهفة الشاعـر ولوعته ونحس بمرارة العاشق الصادق الذي لقـي الصدمة في حبه ... وكانت هذه الصدمة جرحا في القلب والوجدان ، ولا شك ان هذه القصيدة قد صدرت عن تجربة انسانية صادقة مرة عاشهـا العقاد واحس بها احساسا حقيقيا عميقا .

اللحظة الثالثة التي نحس فيها بالشعر الحقيقي الجميل عنـد العقاد هي تلك اللحظة التي يمتزج فيها تأمله العقلي بالرؤية الشعرية الواضحة عنده ... والرؤية الشعرية عند العقاد لا تنضح وتصفو الا عندما يعبر عن شعور حي صادق يعيش في قلبه ويحرك وجدانه لا عندما يعبر عن خيالات ذهنية مجردة . وهذا نموذج من امتزاج التأمل العقلي بالرؤية الشعرية عند العقاد ... يقول العقاد في قصيدة بعنوان « هذا هو الحـب » :

الحـب أن ابصر مـا لا يـرى
او أغمض العيـن فـلا أبصرا
وان اسيـغ الحـق ما سرني
فان ابـى فالكـذب المفتـرى
الحب أن أسـأل : مـا بالهـم
لم يعشقـوا المنظـر والمخبرا ؟
ويسأل الحـادون مـا بالـه
هام بهـا بهـرا ومـا فكـرا ؟
الحب أن أفـرق مـن نملـة
حينا ، وقد أصرع ليث الشرى
وأن أرانـي تـارة مقبـلا
وخطوتي تمشـي بـي القهقرى

هنا نجد ان الشاعر يصور ـ في اطار من الرؤية الشعريـة الواضحة ـ حالة نفسية خاصة هي حالة العاشق الذي يرى بقلبه لا بعينيه والذي يحس بالواقع الخارجي من خلال امتزاج هذا الواقـع بحالته الشعوريـة ووجدانه الخاص ... والابيات برغم ما فيهـا مـن الخشونة في الصياغة واختيار الالفاظ ـ الا أنها تقدم رؤية شعريـة لعاطفة الحب هي من اجمل الرؤى واصدقها وأكثرها عذوبة وشاعرية .

هذا هو العقاد في لحظاته الشعرية القليلة النادرة والتي يقدم فيها شعرا حقيقيا مؤثرا بعيدا عن طريقته التي تسيطر على معظـم قصائده وتؤدي الى ضعفها وخلوها من روح الشعر الحقيقي ... هذه هي لحظات العقاد الشعرية الثلاث ... لحظة انطلاقه وعودته الى فطرته البسيطة الخالية من القيود التي يفرضها على انفعالاته وعواطفه ... ولحظة التجربة النفسية المحددة التي تهز قلبه وتسيطر على وجدانه... ولحظة الرؤيـة الشعريـة الواضحة التي يمتزج فيها التأمل العقلـي بالانفعال والاحساس والعاطفة ... وهذه اللحظات الثلاث قليلة فـي شعر العقاد ... ولكنها مع ذلك لحظات ثمينة غنية بالشعر .

القاهـرة — رجـاء النقاش